تحت ضوء القمر
عمار محمد

تحت ضوء القمر

"المستذئب المصرى"

الفصل الأول:

في الطابق السابع من مجمع «بيوجينكس» للأبحاث بمدينة شيكاغو، جلس الدكتور يونس وحده في مكتبه بعد منتصف الليل. سكون المكان كان كاملًا، كأن المبنى بأكمله دخل في سباتٍ عميق، ولم يبقَ مستيقظًا سوى ضوء شاشة الحاسوب أمامه، ينبض بخطوط ورسومات جينية متحركة.

مدّ يده إلى فنجان القهوة البارد، ثم أعاده دون أن يرتشف منه. تركيزه لم يعد معقودًا على العمل. هاتفه المحمول، الموضوع إلى جوار لوحة المفاتيح، جذب انتباهه منذ دقائق، بعد أن توالت الإشعارات القادمة من مجموعات إلكترونية تحمل أسماء مألوفة: اسم قريته، أسماء عائلات يعرفها، وجوه عاش بينها طفولته.

فتح أحد المقاطع المصورة.

ظهرت على الشاشة صورة لحظيرة مهدمة، وأغنام نافقة ممددة على الأرض في وضع غير طبيعي. الكاميرا اهتزت بعصبية، وصوت المصوّر كان متقطعًا، يختلط فيه الخوف بالدهشة. انتقل إلى مقطعٍ آخر، ثم ثالث. المشاهد اختلفت، غير أن النتيجة واحدة: نفوق حيوانات، آثار عنف غير مألوفة، وحديث متكرر عن كائن يظهر ليلًا ثم يختفي مع الفجر.

التعليقات المصاحبة كانت أكثر إرباكًا من الصور نفسها. كلمات مثل «ذئب»، «وحش»، «شيء غير طبيعي» تكررت بصيغ مختلفة. بعضهم تحدث عن قوة خارقة، وآخرون أقسموا أنهم رأوه يقف منتصبًا للحظات قبل أن يختفي في الظلام.

أسند يونس ظهره إلى الكرسي، وأغمض عينيه لحظة قصيرة. هذه الأخبار لم تظهر لأول مرة اليوم، لكنها ازدادت كثافة وحدّة. خلال الأيام الماضية، كان يقرأها باعتبارها تهويلًا قرويًا مألوفًا، حتى وصلته الصورة التي غيرت نظرته إلى كل شيء.

فتح معرض الصور مرة أخرى، واستدعى الصورة المحفوظة. كانت لحصان العائلة، ممددًا على جانبه، وفخذه يحمل جرحًا عميقًا. اقترب يونس من الشاشة، وبدأ يتفحص الحواف. انتظام الجرح لفت انتباهه فورًا. الخطوط ليست عشوائية، والنمط يتكرر بدقة تثير القلق. هذا النوع من الإصابات لا ينتج عن هجوم حيوان جائع.

رفع الهاتف واتصل بالمنزل.

– أبي؟

جاءه صوت والده، المهندس سليمان، بعد رنين قصير.

– نعم يا يونس... ما زلت مستيقظًا؟

– نعم. كيف الأحوال عندكم؟

توقف الصوت لحظة، ثم جاء الرد:

– بخير، الأمور مستقرة.

النبرة بدت متحفظة، كأن الكلمات مختارة بعناية.

– أمي؟ بدر؟

– بخير، لا تقلق.

في الخلفية، التقط يونس صوت أخته بدر، منخفضًا وسريعًا، تهمس بكلمات لم تكتمل. حاول التركيز، لكن الصوت انقطع.

– الصور المنتشرة... الحوادث التي يتحدث عنها الناس...

قاطعه والده بنبرة حاسمة:

– لا تنشغل بما يُقال. أغلبه تهويل. حيوانات ضالة، وتم التعامل مع الأمر.

ساد صمت قصير، ثم تابع سليمان:

– ركز على عملك هناك، هذا أهم.

أراد يونس أن يضغط أكثر، أن يسأل عن الجرح، عن الصورة، عن سبب القلق الذي شعر به، غير أن والده قال بهدوء:

– خفف الاتصالات هذه الأيام... الشبكة ليست مستقرة.

انقطع الاتصال.

بقي يونس ينظر إلى شاشة الهاتف، ثم أعاد نظره إلى شاشة الحاسوب. الخرائط الجينية عادت تتحرك أمامه، غير أن ذهنه كان بعيدًا تمامًا. شعور ثقيل استقر في صدره، إحساس بأن ما يحدث في قريته يتجاوز مجرد شائعات ليلية.

خارج نافذة المكتب، كانت المدينة غارقة في أضوائها المعتادة، هادئة، آمنة. على بعد آلاف الكيلومترات، كان شيء ما يتحرك في الظلام، ويترك أثاراً بوضوح أكبر مما ينبغي.

-

نذير في المعمل :

في صباح اليوم التالي، عاد مجمع «بيوجينكس» إلى إيقاعه المعتاد. أصوات الأجهزة، خطوات الباحثين، وحديث علمي جاف يتنقل بين الممرات. بدا كل شيء طبيعيًا، إلى حدٍّ يناقض القلق الذي ظل يونس يحمله في صدره منذ الليلة الماضية.

وقف أمام طاولة العمل الزجاجية، مرتديًا معطفه الأبيض، يجهّز شرائح نسيجية تحت المجهر الإلكتروني فائق الدقة. كانت العينات مأخوذة من تجربة روتينية، غير أن تركيزه ظل مشتتًا. صورة الجرح، ونبرة والده، وتلك العبارة القصيرة: «الشبكة ليست مستقرة»، تكررت في ذهنه بلا توقف.

قطع هذا الشرود صوت طرق خفيف على باب المعمل.

– تفضل.

دخل الدكتور بيير، رئيس القسم، بخطوات واثقة. رجل تجاوز الخمسين، ملامحه هادئة، ونظرته لا تعرف المزاح حين يتعلق الأمر بالعمل. لم يكن من عادته زيارة المعامل دون موعد.

– صباح الخير يا يونس.

– صباح الخير دكتور بيير.

تقدم بيير قليلًا، وألقى نظرة سريعة على المجهر، ثم قال دون مقدمات:

– قريتك... تقع في صعيد مصر، أليس كذلك؟ في نطاق محافظة المنيا؟

رفع يونس رأسه ببطء.

– نعم. لماذا؟

لم يجب بيير فورًا. وضع حقيبة جلدية صغيرة على الطاولة، فتحها بعناية، وأخرج ملفًا ذا غلاف وردي، اللون الذي لا يُستخدم داخل المجمع إلا للمواد شديدة الحساسية.

– وصلتنا تقارير غير رسمية خلال الأيام الماضية. – قال وهو يفتح الملف. – ليست تقارير منشورة، بل ملاحظات ميدانية من أطباء بيطريين ومختبرات محلية.

اقترب يونس، وألقى نظرة على الصور. كانت لآثار عضّ، جروح عميقة في أنسجة حيوانية، وبعضها بشري. التقط أنفاسه حين لاحظ ما لفت انتباهه فورًا.

– هذه الحواف... – قال بصوت منخفض. – ليست عشوائية.

أومأ بيير.

– بالضبط. لا تتطابق مع أنماط فكّ الكلاب أو الذئاب المعروفة في تلك المنطقة. الأغرب من ذلك... سرعة التغير الخلوي.

أشار إلى صورة مكبرة لنسيج مصاب.

– انقسام غير طبيعي، نشاط مفرط في بعض الجينات الكامنة، وكأن الخلايا تتلقى أمرًا مباشرًا بالتبدل.

سكت لحظة، ثم تابع:

– لا يشبه فيروسًا تقليديًا. لا طفيلًا، ولا بكتيريا. آلية الانتقال نفسها غير واضحة.

شعر يونس بأن الغرفة ضاقت فجأة.

– تقصد تحورًا جينيًا؟

– أكثر من تحور. – رد بيير بهدوء. – كأن هناك شيئًا يوقظ ما هو نائم في الجينات، ويفرض عليه شكلًا آخر.

رفع نظره إلى يونس مباشرة.

– أنت تعرفني. لا أؤمن بالخرافات، ولا أستخدم كلمات بلا أساس علمي. لكن هناك نمطًا، يا يونس. نمطًا يتكرر، وكل المؤشرات تقود إلى تفسير واحد.

تردد لحظة، ثم قال بصوت أخفض:

– لدي حدس علمي... ليس دليلًا قاطعًا بعد، لكنه حدس مبني على سنوات من البحث.

ابتلع يونس ريقه.

– وما هو هذا الحدس؟

أغلق بيير الملف ببطء، وقال:

– ما يحدث هناك... يشبه إلى حدٍّ مخيف ما كانت الأساطير تصفه قديمًا. ليس بالضرورة كما في القصص، لكن قريب منها.

توقف، ثم أضاف بنبرة جازمة:

– مستذئب... أو شيء يقف على الحافة بين الإنسان والحيوان.

ساد الصمت في المعمل. لم يعد يُسمع سوى أزيز الأجهزة، بينما أدرك يونس، في تلك اللحظة، أن القلق الذي شعر به من بعيد لم يكن وهمًا، وأن ما يقترب من قريته قد تجاوز حدود العلم المألوف.

جلس يونس وحده، يراقب العينات تحت المجهر. كل شريحة، كل خلية، كل تفاعل كيميائي بدا له وكأنه يختزن أسرار القرية كلها. نبض قلبه ارتفع قليلاً، واليد المرتجفة أمسكت بالقلم لتدوين ملاحظاته.

في الخارج، مدينة شيكاغو غارقة في ضوء النهار الباهت، بينما عقل يونس محصور بين الواقع والمعرفة، يحاول جمع القطع المتناثرة من أخبار القرية، الصور، وتقارير البيولوجيا.

سحب نفسًا عميقًا، وتذكر عبارة بيير الأخيرة: "مستذئب... أو شيء يقف على الحافة بين الإنسان والحيوان."

ظل يونس جالسًا في المعمل، يتأمل في ما يمكن أن يواجهه في قريته، عالِمًا أن الطريق أمامه طويل وخطر، وأن القرار القادم سيشكل الفارق بين السيطرة أو الانزلاق في المجهول.

-

رنّ هاتف يونس وهو في طريقه خارج المعمل. توقّف عند الممر الجانبي، ونظر إلى اسم المتصلة قبل أن يفتح الرسالة الصوتية. كان الاسم: مها.

تردّد لحظة، ثم ضغط على التشغيل.

جاءه صوتها هادئًا على غير عادتها، لكنه مشدود، يخفي قلقًا واضحًا:

«يونس... أعلم أن بيننا خلافًا، وأعلم أن هذا الاتصال قد يفاجئك، لكن الأمر لا يحتمل تأجيلًا. والدك تعرّض لحادث خطير. التفاصيل غير واضحة بعد، لكن إصابته ليست بسيطة، وأنا تحركت من قريتي إلى قريتكم الآن.

أرجوك، إن كنت تسمعني، تعال في أقرب وقت ممكن. وجودك ضروري، والوقت ليس في صالحه.»

انتهت الرسالة.

ظلّ الهاتف في يد يونس لثوانٍ طويلة دون حركة. لم يحتج إلى سماع شيء آخر. في تلك اللحظة، لم يعد السفر خيارًا، بل ضرورة لا تقبل التأجيل

بدأ في كتابة طلب إجازة عاجلة. لم يذكر أسبابًا تفصيلية، واكتفى بالإشارة إلى ظرف عائلي طارئ يستوجب السفر الفوري. أنهى الطلب وأرسله عبر النظام الداخلي للمجمع.

بعد وقت وجيز، دخل الى الدكتور بيير داخل مكتبه بالمعمل.

اطّلع على الطلب بتركيز، ثم رفع رأسه وقال بنبرة عملية:

– الإجازة مُعتمدة. سأُسهل إجراءات السفر بنفسي، ولن تواجه أي تعطيل إداري.

توقف قليلًا، ثم أردف بوضوح لا يخلو من اهتمام مهني:

– ما يظهر في تقارير منطقتكم يحمل قيمة بحثية كبيرة. إن تأكدت أي معلومة جديدة، إصابة بشرية، تغيّر في الأعراض، أو نتائج غير معتادة... أبلغني فورًا. هذه الواقعة قد تُحدث سبقًا علميًا حقيقيًا، وأريد متابعتها منذ بدايتها.

أومأ يونس بالموافقة دون تعليق. كان يعلم أن بيير لا يتحرك بدافع الفضول فقط، بل بدافع الباحث الذي يرى في كل ظاهرة استثنائية فرصة علمية نادرة.

غادر المعمل بعدها مباشرة، وقد أصبح قرار السفر محسومًا، ولم يعد هناك ما يربطه بالمكان سوى انتظار خبر واحد من الوطن.

———

الفصل الثاني:

جلس يونس في مقعده بالطائرة قبل الإقلاع بدقائق. أطفئت أنوار المقصورة جزئيًا، وبقي ضوء خافت يكشف الوجوه المتعبة للمسافرين. وضع حقيبته الصغيرة أسفل المقعد أمامه، تلك الحقيبة التي لم تفارقه منذ خروجه من مجمع الأبحاث. بداخلها نسخ من أبحاث لم تُختبر ميدانيًا بعد، وملف واحد مميز بعلامة حمراء، يحتوي على مصل تجريبي لم يُحقن في إنسان من قبل.

لم يكن السؤال الذي يطارده هو كيفية استخدامه، بل جدواه. هل يصلح أصلًا لما يحدث في قريته؟ هل يصيب الهدف أم يفتح بابًا لكارثة أكبر؟ لم تكن هناك بيانات كافية، ولا تجارب بشرية، فقط نتائج معملية محدودة، واحتمالات مفتوحة على كل شيء.

تذكّر كلمات بيير قبل المغادرة، حين شدّ على كتفه وقال بنبرة عملية خالية من العاطفة:

«إن ظهر تطور جديد، أبلغني فورًا. هذه ليست واقعة محلية فقط.»

فهم يونس ما قصده. ما يحدث في قريته قد يتحول إلى سبق علمي، أو فضيحة عالمية، أو كليهما معًا.

أعلنت المضيفة عن الاستعداد للإقلاع. ومع اهتزاز الطائرة، شعر يونس بثقل القرار الذي أخذه. لم يعد باحثًا محايدًا، بل طرفًا في معادلة خطرة، يحمل علاجًا قد ينقذ إنسانًا أو يدمره.

هبطت الطائرة في القاهرة قبل الفجر بقليل. كان المطار يعمل بنظام أمني مشدد دون إعلان. عناصر أمن منتشرة عند الممرات، تفتيش دقيق للحقائب، وأسئلة قصيرة لا تُطرح إلا للضرورة. حين وصل دور يونس، توقف الضابط عند جواز سفره لحظات أطول من المعتاد، ثم نظر إليه نظرة سريعة قبل أن يسمح له بالمرور دون تعليق.

في صالة الوصول، كانت الشاشات تعرض أخبارًا مقتضبة عن "حوادث متفرقة" في بعض القرى، دون ذكر أسباب أو تفاصيل. كلمات عامة، مصاغة بعناية، تخلو من أي معنى حقيقي.

استقل سيارة متجهة إلى الصعيد. الطريق طويل، والليل ينسحب ببطء. على امتداد الطريق، ظهرت نقاط تفتيش غير معتادة. جنود مدججون بالسلاح، إضاءة قوية، وأوامر صارمة بتقليل السرعة. لم يسأله أحد عن وجهته، لكن العيون كانت كافية لتوصيل الرسالة: الحركة مراقبة.

كلما اقترب من قريته، ازداد الصمت داخل السيارة. السائق امتنع عن الحديث، واكتفى بإشارات مختصرة عند كل نقطة تفتيش. في أحد المواضع، لمح يونس مركبات أمنية متوقفة عند طريق فرعي يؤدي إلى الجبل، وأثر حريق قديم لم يُطفأ بالكامل.

وصل إلى مدخل القرية مع أول ضوء للفجر. المكان بدا مألوفًا وغريبًا في آن واحد. بيوت مغلقة، شوارع شبه خالية، وإنارة تعمل بنصف طاقتها. سيارة أمن متمركزة عند المدخل، وعناصر يقفون دون حديث.

حين توقفت السيارة أمام منزل العائلة، ترجل يونس ببطء. نظر إلى البيت الذي تركه منذ سنوات، فوجده محاطًا بصمت ثقيل. الباب الخارجي مغلق، والنوافذ معتمة. كان يجب بخاطره سؤلاً،

هل هذا بيتًا يستعد لاستقبال عائد أممكان ينتظر شيئًا لا يريد أحد تسميته.؟

طرق الباب، وهو يعلم أن اللحظة التالية قد لا تحمل إجابات، ربما أسئلة أكثر مما يحتمل.

-

فتح يونس الباب بحذر، ودخل إلى المنزل. لم يكن في استقبال أحد، لا مها، ولا بدر، ولا أي أثر للحياة المعتادة. الصمت خيّم على المكان، أثقل من أي لحظة انتظار مرّت عليه من قبل.

حاول يونس الاتصال بمها على الفور. جاءه صوتها عبر الهاتف، هادئًا ومقتضبًا، لكنه حاملاً القلق:

ـــيونس... اسمعني جيدًا. والدك ووالدتك في المستشفى، تحت إشراف الطبيب المكلف من وزارة الصحة، الدكتور بدوي. بدر موجودة هناك أيضًا. لقد حصلنا على إذن بالعودة للمنزل، لكن البقاء تحت الملاحظة والعزل الصحي ضروري. لا تتحرك إلى هنا بسبب حالة حظر التجوال.

أعاد يونس الهاتف إلى جيبه، وهو يشعر بثقل المسؤولية. كل خطوة من خطواته الآن مرتبطة بالتحذيرات الأمنية والصحية، وكل حركة قد تعني المخاطرة. جلس على الأريكة وحيدًا، محاولًا ترتيب متعلقاته الشخصية، مراجعة الحقائب، والوثائق، وأبحاثه، بينما كانت عيناه تراقب القرية من نافذة الطابق العلوي.

الشارع خالٍ تقريبًا، إلا من بعض أضواء السيارات الأمنية البعيدة، ونقاط التفتيش الموزعة بعناية. شعور بالقلق خيم على يونس، مزيج من الخوف والحذر، وهو يتابع تحركات القوى الأمنية وانتشارها حول المكان.

جلس في هدوء، يتفقد تقارير عن الإصابات والحوادث السابقة، ويعيد قراءة الملاحظات التي دوّنها في أمريكا، محاولًا ربط ما لديه من معلومات بالواقع الذي يراه أمامه.

مرت ساعة، دون أن يظهر أي شخص. كل دقيقة تزيد من توتره، وتزيد شعوره بالوحدة، قبل أن يسمع أخيرًا أصوات خطوات عند الباب، ودخول مها وبدر، يرافقهما شعور بالاطمئنان نسبيًا، بعد طول انتظار وتأخر واضح.

دخلت مها وأخته بدر مصطحبتين والدته ووالده.

تستند الأم على شقيقته بدر والأب يدفعونه على ناقله الإسعاف حتى الغرفه ،

قالت مها

ـــ أهلاً بعودتك، يونس.

قالت الأم الست علا

ـــ مرحبًا بك، يا بني.

قالت بدر

ـــ سعيدون برؤيتك سالماً.

اقترب يونس منهم، قلقه واضح، وقال

ـــ وانا ايضا سعيد برؤيتكم .

ـــ ماذا حصل لكم؟ هل أنتم بخير؟

قالت مها مطمئنة

ـــ لا تقلق، كل شيء على ما يرام. الذئب هجم عليهم، لكن السيارة انقلبت والحمد لله نجو.

والدك ووالدتك تحت مراقبة كاملة.

نظر يونس إلى والدته والأب، فلاحظ الأم لا تتذكر الحادث بشكل واضح، والوالد نائمًا تحت تأثير العلاج.

قال يونس بخوف

ـــ عليكم الاطمئنان... لا بد أن أطمئن على كل شيء.

بعد أن طمأن نفسه، خرج يونس ليتحدث مع مها وبدر خارج الغرف.

قال يونس

ـــ أخبروني، ما الأخبار الرسمية في القرية؟

قالت بدر

ـــ رسميًا، هناك ذئب مفترس هاجم بعض القرى. أما أقوال الناس، فهي تقول إن الحادث أشبه بحيوان على قدمين، وحش حقيقي، لكن مع القبضة الأمنية صار ممنوعًا الكلام في الأمر.

قالت بدر أيضًا

ـــ لدينا حالتان وفاة هنا في قريتنا، وحالة في قريه مها المجاورة، وهناك مصابون تحت إشراف الدكتور بدوي.

قالت بدر

ـــ الدكتور بدوي سيصل خلال ساعة ليطمئن على والدك، وسيناقشك في بعض الأمور حسب طلبه.

جلس يونس بعد ذلك مع مها وبدر، وبدأوا بمراجعة الملفات، الحوادث، التقارير التي جلبها معه من أمريكا، وفحص الأبحاث والمصل الغير مجرب الذي أحضره.

وبعد حوالي ساعة، قرع جرس البيت معلنًا وصول الدكتور بدوي في وقت متأخر من الليل.

فُتح باب المنزل، ودخل الدكتور بدوي بخطوات هادئة، وقد بدا عليه الإرهاق من طول اليوم. تقدّم يونس نحوه واستقبله باحترام.

قال يونس

ـــ أهلًا بك، دكتور بدوي، شكرًا لقدومك في هذا الوقت الحرج.

قال الدكتور بدوي

ـــ هذا واجبي، خصوصًا في هذه الظروف التي تمر بها البلاد.

توجّه الدكتور بدوي مباشرة للاطمئنان على حالة الوالدين. فحص الأم سريعًا، ثم ألقى نظرة مطوّلة على الأب الممدد على السرير.

قال الدكتور بدوي بجدية

ـــ الحالة الطبية مستقرة حاليًا، لكن إصابة والدك خطيرة. يجب الالتزام بالعلاج المهدئ بصورة دائمة، فالنوبات التي يتعرض لها ناتجة عن الصدمة العصبية التي سببها هجوم هذا الذئب المفترس. أي إهمال قد يعرضه لخطر حقيقي.

أومأ يونس برأسه في صمت، وقد ازدادت ملامح القلق على وجهه.

بعد الانتهاء، طلب الدكتور بدوي الجلوس على انفراد مع يونس. وضعت بدر أكواب الشاي أمامهما بهدوء، ثم انسحبت، وبقي الرجلان وحدهما.

قال الدكتور بدوي

ـــ الوضع الطبي تحت السيطرة، لكن المشكلة الحقيقية ليست طبية فقط. أهل القرى هنا في الصعيد يميلون إلى الخرافات، ويستسهلون تصديقها. لهذا طلبنا تدخل الأمن، ليس فقط للحماية، بل أيضًا لإسكات الشائعات ومنع انتشار الذعر.

ثم نظر إلى يونس نظرة فاحصة، وتابع

ـــ أما أنت... فلا بد أن هناك أقاويل عندكم في المختبر بأمريكا. ما رأيك؟

لم يرتح يونس للسؤال، وشعر بشيء من الريبة، لكنه أجاب بتحفظ.

قال يونس

ـــ التكتم هو سبب الحديث لا أكثر ولا أقل. الأمور هناك تسير وفق خطط العمل المعتادة. هؤلاء لا يفكرون إلا في البحث والتقدم العلمي.

لم يبدُ على الدكتور بدوي الاقتناع الكامل، لكنه لم يعلّق. بدلًا من ذلك، سأل بهدوء:

قال الدكتور بدوي

ـــ وماذا عن اللقاحات أو الأمصال؟ هل توجد أي تجارب قد تفيد في مثل هذه الحوادث؟

أجاب يونس باختصار

ـــلاشئ مشابه .

جاءت إجابات يونس مقتضبة وغير صريحة، متعمدة الحذر. انتهى الحوار عند هذا الحد، فنهض الدكتور بدوي.

قال الدكتور بدوي

ـــ أرجو المتابعة المستمرة للحالة، وسأبقى على تواصل.

ثم غادر المنزل.

بعد رحيله، لم يشعر يونس بأي ارتياح. كان كلام بدوي يثقل صدره أكثر مما يطمئنه. جلس مع مها وتحدث إليها بصوت منخفض.

قال يونس

ـــ المصل... لا أثق بأحد في هذا الأمر سواكِ، مهما حدث.

ابتسمت مها ابتسامة خفيفة، وقالت

ـــ أعلم ذلك، رغم كل خلافاتنا.

اطلعت مها على المصل والأبحاث المرافقة له، وناقشت يونس في آلية عمله والتوقعات المحتملة لنتائجه. وبعد تفكير قصير، قال يونس بحسم:

قال يونس

ـــ أبقي هنا فى المنزل مع بدر، بجوار والديّ. سأستخدم الغرفة السفلية للمنزل، تلك التي كنت أجري فيها تجاربي القديمة أيام الدراسة. أحتاج إلى إجراء بعض الفحوصات للتأكد من المصل قدر المستطاع.

تقدّمت مها نحوه بعد أن أنهى مراجعة الأوراق، وقد بدا الإرهاق واضحًا على ملامحه رغم محاولته إخفاءه.

قالت مها

ـــ يونس، أنت عائد من سفر طويل، لم تنم منذ ساعات. حاول أن ترتاح قليلًا.

رفع يونس نظره إليها، وصوته يحمل قلقًا مكبوتًا.

قال يونس

— لا وقت للراحة. ما أراه وما أسمعه هنا لا يطمئن. أخشى على والديّ أكثر مما أستطيع تحمله.

سادت لحظة صمت قصيرة، لم تجد مها فيها ما تقوله. اكتفت بالنظر إليه، وقد أدركت أن القلق الذي يسيطر عليه أعمق من أن يُهدّأ بكلمات.

عاد يونس إلى أوراقه وملاحظاته، وكأن التعب لم يعد يعنيه، بينما بقيت مها وبدر تتابعان حالة الوالدين في صمت ثقيل، يزداد معه الشعور بأن ما حدث لم يكن حادثًا عابرًا، وأن القادم يحمل ما هو أخطر.

حاول يونس التواصل مع بيير، لكن الاتصال لم يثمر سوى رسائل متقطعة. التزم بما وصله من تعليمات، ثم استسلم للنوم داخل الغرفة السفلية.

أما بدر ومها، فظلتا تتناوبان حتى اليوم التالي على متابعة حالة الوالدين، في صمتٍ يثقله القلق، وترقّب لما هو قادم.

نام يونس نومًا عميقًا، ثقيلاً، كأن جسده استسلم أخيرًا بعد أيام متصلة من التوتر والسفر والسهر. لم يشعر بالوقت، ولم يره حلم، فقط فراغ طويل انتهى بصوت بعيد اخترق وعيه فجأة.

كان الصوت آتيًا من الشارع.

استيقظ على جلبة غير منتظمة؛ صياح متقطع، خطوات مسرعة، ثم هدير سيارة يتبعه صمت قصير. جلس على حافة السرير، قلبه يخفق، وأذناه تحاولان التقاط معنى لما يسمع. نادى بصوت مرتفع:

— بدر؟

لم يجبه أحد.

ارتدى ملابسه على عجل وخرج من الغرفة، صعد السلم المؤدي إلى أعلى ، فوجد البيت ساكنًا كعادته لكن يبدو هذه المره مقلقا.

الصوت في الخارج ما زال حاضرًا، لكنه بدا أقرب الآن، أو ربما كان القلق هو ما يضخمه في رأسه.

اتجه نحو غرفة والده، فوجد الباب مواربًا. كانت بدر بالداخل، تقف جوار السرير، تراقب أجهزة المراقبة البسيطة المثبتة قربه.

قال يونس بصوت خافت

— ما هذا الصوت في الخارج؟

التفتت بدر نحوه، وبدت على وجهها علامات إرهاق ليلة طويلة.

قالت بدر

— حوادث جديدة... يقولون إنها مشابهة لما حدث من قبل. سيارات أمن، وإسعاف مرّت منذ قليل.

مها ذهبت الى قريتها وستعود فى الغد .

لم يعلّق يونس، لكن نظراته تشددت. اقترب من السرير، نظر إلى والده؛ كان ما يزال غارقًا في نومه الثقيل تحت تأثير المهدئات، ملامحه ساكنة على نحو مقلق.

قبل أن ينطق بكلمة أخرى، دوّى جرس الباب.

تبادلا نظرة سريعة، ثم خرجت بدر لفتح الباب. بعد لحظات دخل الدكتور بدوي إلى المنزل، بوجهه الجاد المعتاد، ومعطفه الداكن الذي لا يفارقه. ألقى نظرة سريعة على يونس، ثم اتجه مباشرة نحو غرفة المريض.

بعد الفحص السريع وطرح بعض الأسئلة الروتينية، قال بدوي بنبرة عملية

— الحالة مستقرة، لكن المتابعة ضرورية.

تردد يونس لحظة، ثم قال

— دكتور بدوي... أريد الاطلاع على الحالات الأخرى. رؤية طبية فقط. ما يحدث هنا لا يمكن فصله عن إصابة والدي.

رفع بدوي رأسه ونظر إليه طويلًا، نظرة تحمل حذرًا واضحًا، كأنه يزن كلماته قبل أن ينطق.

قال بدوي

— هذه أمور حساسة.

قال يونس بهدوء

— أنا طبيب، وما أطلبه يدخل في نطاق عملي. لن أتجاوز حدودي.

ساد صمت قصير. أخيرًا تنفّس بدوي بعمق، ثم قال

— حسنًا. يمكنك الحضور، لكن بما يُسمح لك برؤيته فقط.

لم يظهر الارتياح على وجه يونس، لكنه أومأ موافقًا. كان يعلم أن هذه الموافقة لم تكن كاملة، وأن ما يُخفى ربما يفوق ما سيُعرض عليه، ومع ذلك أدرك أن هذه الخطوة هي بداية الدخول إلى قلب ما يجري فعلًا في القرية.

—-

الفصل الثالث:

تحرّك يونس مع الصباح، بعد فطور سريع لم يشعر بطعمه، قاصدًا المستشفى العام حيث يعمل الدكتور بدوي. الشوارع المؤدية إلى المبنى تخضع لاستنفار أمني غير معتاد؛ حواجز معدنية، جنود مدججون، ونظرات تفتيش لا تعرف التهاون.

تقدّم نحو البوابة الرئيسية، فأوقفه أفراد الأمن ومنعوا دخوله. عرّف بنفسه، لكن الأوامر بدت واضحة. طلبوا الانتظار. دقائق ثقيلة مرّت قبل أن يصل اتصال من الداخل. تغيّر الموقف فورًا، فُتح المسار، وسمحوا له بالعبور.

داخل المستشفى، بدا كل طابق بعالمه الخاص. أمن مختلف، حراسة أشد، وجوه متجهمة. صعد مع بدوي طابقًا تلو الآخر، وكل مستوى يحمل نوعًا بعينه من الحالات. عند الطابق الأخير، توقف بدوي ومدّ يده مانعًا.

قال بدوي

— هذا الطابق غير متاح. الحالات هنا متأخرة.

لم يناقشه يونس. اكتفى بهز رأسه، لكن صدره ضاق. الصور التي لاحقته منذ أيام عادت دفعة واحدة؛ شاشة هاتفه في شيكاغو، جرح الحصان، الحواف المنتظمة، آثار تشبه الحوافر، ثم إصابة والدته، جسد والده الممدد، والملامح نفسها التي لا تخطئها عين طبيب.

تنقّل بين الحالات المسموح بها، يراقب، يسأل، يستمع. إجابة واحدة تتكرر: لا أحد يدري ما الذي حدث. هجوم سريع، قوة غير مألوفة، ظلام، ثم صراخ. الرعب حاضر في الوجوه، حتى عند من حاولوا التماسك.

بين الأسرة، التقى رجلًا يعرفه. السيد فايز، والد معتز صديق يونس. تبادلا نظرة فهمت أكثر مما قيل. اقترب الرجل وخفّض صوته.

قال فايز

— رأيته بعيني. ليس ذئبًا عاديًا. يمشي على قدمين... ذئب في هيئة بشر، لكنه متوحش.

تلفّت حوله سريعًا، ثم أضاف

— الأمن يمنع الكلام. من يتحدث يختفي. الخوف يملأ المكان.

سأل يونس بقلق

— معتز؟

أجاب فايز

— كان معى فى الحادث .

—إصابته خطيرة. نقلوه إلى الطابق العلوي.

ارتفعت نبضات قلب يونس. الطابق الممنوع. المكان الذي أُغلق دونه. أدرك أن ما يُخفى هناك يفوق ما رآه حتى الآن، وأن اسم معتز لم يعد مجرد ذكرى صديق قديم، بل مفتاح فصل جديد أكثر ظلمة.

دخل يونس مكتب الدكتور بدوي بخطوات محسوبة، وأغلق الباب خلفه بهدوء. وقف للحظة قبل أن يتكلم، كأنه يزن كلماته.

قال يونس

— أريد الاطلاع على الطابق العلوي.

رفع بدوي رأسه ببطء من خلف مكتبه، ونظر إليه نظرة مباشرة خالية من المجاملة.

قال بدوي

— هذا مرفوض تمامًا. الحالات هناك حرجة. لا يصعد أحد سوى أنا وبعض الممرضين، وفي مواعيد أحددها بنفسي.

شدّ يونس على فكه، ثم قال بنبرة حاول ضبطها

— علمت أن أحد أصدقائي حالته خطيرة، وهو في الطابق العلوي. لا بد أن أراه.

تغيّرت نظرة بدوي، صارت أكثر حذرًا.

قال بدوي

— كيف علمت؟

تردد يونس لحظة قصيرة، ثم أجاب

— أُصيب هو ووالده في الحادث نفسه. قابلت والده هنا، وأخبرني أن ابنه نُقل إلى الأعلى.

عضّ بدوي على شفتيه، وصمت. بدا كمن يفكر في أكثر من احتمال في الوقت نفسه. أخيرًا قال

— هذا ممنوع.

لكنه لم يكن حسمًا قاطعًا. بدا واضحًا أنه يستعيد في ذهنه موقع يونس، اسمه، عمله في معمل معروف في أمريكا، وقدرته على إثارة ضجة لا يرغب فيها أحد الآن. لا مصلحة في التصعيد، لكن لا ثقة كاملة أيضًا.

بعد لحظات من الصمت، قال بدوي

— ما اسم الحالة؟

أجاب يونس

— معتز.

تغيّر وجه بدوي تغيرًا طفيفًا، لا يلحظه إلا من يعرف قراءة التفاصيل. تنفّس بعمق، ثم قال

— سأسمح بإنزاله خمس دقائق فقط. لا أكثر.

راقب يونس الإجراءات بعين يقظة. الحصار كان واضحًا؛ ممرضون، حراسة قريبة، نظرات مراقبة لا تنقطع. نُقلت النقالة، وكان معتز مستيقظًا رغم وضوح شدة إصابته.

اقترب يونس، وتبادل معه نظرة تعارف صامتة.

قال يونس

— كيف حالك؟

أجاب معتز بصوت واهن

— ما زلتُ هنا، الأمر صعب.

جلس يونس إلى جواره، وتحدث أمام بدوي بكلمات طبية عامة، ثم مال قليلًا كأنه يطمئنه. أخرج ورقة صغيرة، كتب عليها سريعًا وهو جالس، ثم دسّها تحت الغطاء أثناء تظاهره بتعديل وضعه. قرأها معتز بعينين مرهقتين:

أعلم ما حدث لك. أخبرني ماذا يوجد في هذا الطابق.

رفع يونس صوته قليلًا، موجّهًا حديثه إلى بدوي

— إصابة معتز تشبه إصابة والدي إلى حد كبير. لكن لماذا لم يُحجز والدي هنا؟ أليست حالته خطرة؟

وأشار بيده إلى الخارج حيث يقف الأمن، متعمدًا صرف انتباه بدوي. في تلك اللحظة، كتب معتز بصعوبة، ثم توقف. استدار يونس نحوه، وضع يده على صدره كأنه يفحص التنفس، والتقط الورقة بسرعة.

قال يونس بصوت مسموع

— لا تقلق يا صديقي، الدكتور بدوي يقوم بعمل رائع من أجلكم جميعًا.

انتهت الدقائق الخمس. خرجوا معًا. وقبل أن يغادر يونس، أمّن بدوي نفسه باتصال هاتفي.

كان المتحدث الضابط فارس، قائد الكتيبة الخاصة المكلفة بتأمين القرية. حضر فارس بنفسه بعد دقائق، وتحدث مع يونس بلهجة رسمية محسوبة.

قال فارس

ـــ نعلم أنك تعمل في معمل كبير في أمريكا، وتصلنا أقاويل كثيرة. ما يحدث هنا تحت السيطرة. سمعة البلاد وأمنها خط أحمر. لا نريد خروج أي معلومات عن الحالات. الدكتور بدوي يطلب، ونحن ننفذ، حفاظًا على الأمن العام ومنع القلق الاجتماعي.

صمت يونس لحظة، ثم ابتسم ابتسامة هادئة.

قال يونس

ـــ أتفهم ذلك تمامًا يا سيدي. بلدي قبل كل شيء. سنتعاون لإنهاء الأمر بهدوء.

أومأ فارس برأسه.

قال فارس ناظراً إلى بدوى

ـــ سنتابع الأحداث. لكن عليك التحرك سريعًا. الأمر يبدو شائكًا، والعلاج لم يُحدث تأثيرًا بعد.

استأذن يونس وغادر، والورقة في جيبه، وقلق كبير يستقر في صدره، أكبر من كل ما سمعه حتى الآن.

عاد يونس من المستشفى سيرًا على الأقدام، متعمدًا ألا يستقل سيارة. كان يريد أن يرى القرية بعينيه، لا عبر التقارير ولا الكلمات المبتورة.

الطريق بدا مألوفًا في ملامحه العامة، لكنه غريب في روحه. أشجار محطمة عند أطراف الحقول، أرض سوداء كأن نارًا مرت بها ثم خمدت، رماد متناثر لا يليق بحادث عابر. وجوه الناس في الشوارع تحاول التماسك؛ أحاديث قصيرة، نظرات سريعة، ابتسامات مصطنعة تنكسر فور أن يبتعد الرقيب.

الاستنفار الأمني كان حاضرًا في كل زاوية. كل مكان تظهر فيه آثار تحطيم أو دم، يُطوَّق فورًا، ويُمنع الاقتراب منه. الصمت المفروض كان أبلغ من أي اعتراف.

توقف يونس عند إحدى الأراضي الزراعية المهجورة. اقترب بحذر، فانجلى له على جذع شجرة أثر واضح لحوافر، غائرة بعمق غير طبيعي، ثم بقع دم جافة متفرقة على التراب. انحنى، وجمع بقايا صغيرة من الرفات، وضعها في كيس معقم كان يحتفظ به دائمًا. لم يكن متأكدًا مما سيجده، لكنه كان متأكدًا أن عليه المحاولة.

عاد إلى المنزل مع حلول المساء.

وجد أمه وأخته تجلسان إلى طاولة العشاء بجوار والده. بدت والدته أفضل قليلًا؛ شحوب أقل، حركة أهدأ. أما والده فكان مستقرًا، نائمًا تحت تأثير المهدئات، وجهه ساكن لا يدل على شيء.

اطمأن عليهم، تبادل كلمات قصيرة مطمئنة، ثم قال بهدوء إنه ذاهب إلى غرفته لمتابعة بعض الأعمال.

أغلق الباب خلفه، وأخرج الورقة.

قرأها ببطء، وكأن كل كلمة تحتاج شجاعة.

كلمات معتز كانت متقطعة، غير منتظمة، لكنها واضحة في رعبها:

وحش... ذئب على قدمين... عملاق.

الحالات في العلوي تُترك لتموت... تتحول.

بنج... أدوات تخدير كثيرة... حتى الموت.

لا علاج حتى الآن نفع معها.

يقول اسمه دكتور بلال.

سقطت الكلمات على صدر يونس كطلقات متتابعة. لم يكن الأمر هجوم حيوان فقط. كان منظومة كاملة تُدار في الخفاء.

تذكّر والده فورًا.

الجرح. فقدان الذاكرة. المهدئات. التحذير من النوبات.

لا وقت للتردد.

المصل الذي جاء به لم يُجرب بعد. لا أحد يعرف إن كان سيُنقذ... أو يُسرّع النهاية. لكنه الخيار الوحيد الذي يملكه.

مرّ المساء وهو جالس مكانه، بلا حركة. دخلت عليه أخته، ثم والدته، تحدثتا إليه، حاولتا طمأنته. أخبرته أخته أنها ستبقى قليلًا بجوار والده، وأن والدته خلدت للنوم.

ثم خلت الغرفة إلا منه.

جلس وحده، والظلام يزداد ثقلًا.

أمامه خياران، لا أمان في أيٍّ منهما.

إما أن ينتظر، فيخسر ما تبقى دون أن يفعل شيئًا،

أو أن يجرّب المصل... ويواجه عواقب لا يمكن التنبؤ بها.

رفع يونس عينيه نحو النافذة. كان القمر يعلو ببطء.

والقرار لم يعد مؤجلًا.

ثم اكتمل القمر.

لم يكن ظهوره عاديًا؛ كان عاليًا، كامل الاستدارة، ضوؤه أبيض قاسٍ يسكب على القرية سكونًا خانقًا.

ثم، فجأة، شقّ العواء الهواء.

عواء طويل، غليظ، غير بشري، جعل الدم يتجمد في عروق يونس. لم يكد يستوعب الصوت حتى تبعته طلقات نارية متتابعة، حادة، قريبة، ثم دويّ انفجار مكتوم هزّ النوافذ.

وصوت صارخ من الخارج:

ـــ أطفئوا الأنوار!

ارتجف يونس. أغلق باب غرفته بسرعة، واتجه نحو غرفة والده. الجميع نائم. والدته في سبات ثقيل، والده ساكن تحت تأثير الدواء، وبدر غلبها التعب فنامت على المقعد المجاور.

لم يوقظ أحدًا.

أطفأ الأنوار بحذر، وعاد إلى غرفته. وقف أمام النافذة، ينظر إلى القمر الذي يغمر كل شيء بضوئه الفاضح.

همس لنفسه:

تحت ضوء القمر.

الخطر يبدأ تحت ضوء القمر.

أخرج المصباح القديم من خزانة جانبية، أشعله بلهب خافت لا يكاد يُرى من الخارج. جلس إلى مكتبه، وبدأ يراجع أبحاثه، يقارنها بما جمعه من آثار، يحلل العينات التي التقطها من الأرض، يحاول فهم ما يحدث داخل الخلايا، كيف يتسارع التحول، ولماذا يرتبط بالقمر.

الأصوات في الخارج لم تتوقف. عواء، صراخ بعيد، أوامر عسكرية، إطلاق نار متقطع. كل صوت كان يضغط على عقله أكثر.

لابد من إنقاذ أحد... قبل فوات الوقت.

مرت الساعات بطيئة، ثقيلة، حتى بدأ الفجر يزحف بخيط باهت من الضوء. كان القرار قد نضج داخله، مرعبًا وواضحًا في آن واحد.

لا مفر.

المصل يجب أن يُستخدم.

لكن الآن... لابد من فحص أدق.

لابد أن تصل مها. وبمعملها، وخبرتها في فحص الجينات، قد تكون الفارق بين الإنقاذ والهلاك.

نهض أخيرًا، وضع رأسه على سريره دون أن يخلع ثيابه، وقال بصوت خافت كأنه يقسم:

عند الصباح... أول تجربة للمصل، فور وصول مها.

وأغمض عينيه، بينما كان القمر ينسحب ببطء، تاركًا وراءه ليلًا مثقلًا بالأسرار.

-

في الصباح، استيقظ يونس سريعًا بعد نومٍ متقطع، وكأن جسده لم ينل من الراحة إلا اسمها. كان الضوء يتسلل باهتًا من خلف الستائر، فيما بقي ثقل الليل عالقًا في رأسه.

لم تمضِ ساعة حتى وصلت مها.

دخلت المنزل في هدوء، وتوجهت أولًا إلى غرفة الأم، اطمأنت على حالتها، ثم جلست مع بدر دقائق قليلة. وبعدها عاد الجميع إلى غرفة المهندس سليمان. راقبت مها المؤشرات الحيوية بعين خبيرة، ثم هزّت رأسها ببطء.

قالت مها:

— حالته مستقرة... لكن هذا الاستقرار مؤقت.

نظر يونس إلى أخته ووالدته، ثم قال بهدوء لا يحتمل النقاش:

— أريدكما أن تغادرا الآن لأناقش بعض الأمور الطبيه معها

قالت بدر بقلق:

— سنذهب إلى بيت خالتي كما اتفقنا.

— سنعود سريعًا.

أجابها:

ـــ لا تعودي إلا إذا اتصلت بك بنفسي.

غادرتا المنزل، وبقي يونس مع مها ووالده فقط. أُغلق الباب، وساد صمت ثقيل لم يقطعه سوى صوت تنفس المهندس سليمان المنتظم.

جلس يونس قبالة مها، وكأنه ينتظر هذه اللحظة منذ أيام.

قال يونس:

ـــ سأحكي لك كل شيء... دون استثناء.

بدأ يسرد ما رآه في المستشفى، وحديثه الخفي مع السيد فايز، وكلمات معتز المتقطعة، والطابق العلوي الذي تُترك فيه الحالات لمصيرها. أخرج الورقة التي كتبها معتز، ووضعها أمامها، ثم عرض العينات التي جمعها، وآثار الحوافر، وبقع الدم، والتشابه المريب بينها وبين إصابة والده والحصان.

كانت مها تستمع في صمت، ملامحها تتغير تدريجيًا من القلق إلى الإدراك.

قالت مها أخيرًا:

ـــ هذا ليس مرضًا عاديًا... ولا حتى عدوى.

أومأ يونس، ثم فتح حقيبته وأخرج الملفات.

- هذه أبحاثي، وهذا المصل. لم يُجرَّب على بشر. بيير أعطاني إياه وهو يعلم المخاطرة.

تصفحت مها الأوراق بعين دقيقة، توقفت عند بعض المعادلات، ثم رفعت نظرها إليه.

ـــ الوقت ليس في صالحنا.

جلس يونس أمام الحاسوب المحمول، وبدأ في إرسال رسائل بريد إلكتروني متتابعة إلى الدكتور بيير، يشرح فيها ما حدث، ويرفق النتائج الأولية، ويطلب رأيًا عاجلًا. لم تصله سوى رسائل قصيرة متقطعة تؤكد الاستلام وتطالبه بالحذر.

أغلق الحاسوب، ونظر إلى والده النائم.

قال بصوت منخفض:

-إذا انتظرنا أكثر... قد لا نملك فرصة ثانية.

قالت مها:

-وإذا أخطأنا... قد نفقده.

سكت يونس لحظة، ثم قال بحسم:

-سنفقده إن لم نفعل شيئًا.

اقترب من حقيبة المصل، وأعاد فحصها، وحدد الجرعات، وراجع التفاعلات المتوقعة. كان يعلم أن ما يستعد له ليس تجربة علمية فحسب، بل مقامرة بكل ما تبقى له.

قال وهو يلتقط نفسًا عميقًا

ـــالوقت ضيق... وسنبدأ الاستعداد الآن.

لم تُجبه مها، لكنها بقيت إلى جواره، تدرك أن ما سيحدث بعد هذه اللحظة لن يكون علمًا فقط، بل قرارًا يغيّر كل شيء.

—

الفصل الرابع

بعد ساعات طويلة من الحساب والمراجعة، أعاد يونس قراءة الجرعة الموصى بها مرة أخيرة. طابق الأرقام مع ما ورد في البحث، ثم عاد إلى رسالة بيير الأخيرة، التي أكد فيها الجرعة وحذّر من أي تعديل، مهما بدا بسيطًا.

لم يعد هناك مجال للتردد.

وقف يونس إلى جوار سرير والده، بينما جهّزت مها الحقنة في صمت. تبادلا نظرة قصيرة، لم يكن فيها خوف بقدر ما كان فيها إدراك كامل لخطورة اللحظة.

قال يونس:

— نبدأ الآن.

أومأت مها.

أُعطيت الجرعة ببطء. راقب يونس عقارب الساعة، وملامح وجه والده، وحركة صدره.

في الدقائق الأولى، لم يحدث شيء.

بعد خمس دقائق، بدأ التعرق يظهر على جبين المهندس سليمان. تنفسه ظل منتظمًا، لكن صوته خرج متقطعًا، كأنه يتألم دون أن يفيق. تحركت أصابعه حركة خفيفة، ثم شدّ جسده للحظة قصيرة.

قالت مها بصوت منخفض:

— المؤشرات الحيوية مستقرة… حتى الآن.

مرّت عشر دقائق. صدر أنين خافت، ثم عاد الجسد إلى سكون تام. توقف التعرق تدريجيًا، وعاد التنفس إلى إيقاعه الطبيعي.

تبادلا نظرات قلقة.

مرّت ساعة كاملة دون أي تغير يُذكر. بدا كل شيء كما كان، وكأن الجرعة لم تفعل شيئًا.

وقبل أن ينطق أحدهما، فتح المهندس سليمان عينيه.

نظر حوله ببطء، ثم استقرت عيناه على يونس. ابتسامة ضعيفة ارتسمت على وجهه.

قال بصوت خافت:

— الحمد لله…

سأله يونس :

— بماذا تشعر الآن؟.

أجاب:

— أشعر أنني أفضل… لكن هناك خمول شديد… وكأن جسدي مخدَّر.

اقترب يونس ومها منه في آن واحد.

قال يونس:

ـــ المهم أنك واعٍ... هل تشعر بألم؟

أجاب:

ـــ لا... فقط إرهاق.

تنفست مها بارتياح جزئي، لكنها لم ترفع عينيها عن المؤشرات.

بعد لحظات صمت، قال يونس:

ـــ أبي... أريدك أن تحاول تذكّر ما حدث يوم الحادث.

ساد صمت قصير، ثم قال سليمان ببطء:

ـــ لم يكن ذئبًا عاديًا... كان وحشًا... مستذئبًا كما تحكي الأساطير. وقف على قدمين... هاجمنا فجأة... انقلبت السيارة... حاول الاقتراب من والدتك... دافعت عنها... أصابني... ثم سمعت طلقات نارية... وهرب.

تجمد يونس في مكانه.

قبل أن يسأل أكثر، دوّى طرق قوي على باب المنزل.

التفت الثلاثة في توتر.

نهض يونس بحذر، واتجه إلى الباب. فتحه قليلًا، فإذا بمعتز يقف أمامه، وجهه شاحب، ملابسه ملطخة، وعيناه ممتلئتان بالذعر.

قال معتز:

ـــ الوضع خرج عن السيطرة... استنفار أمني... أحد المصابين بدأ يتحول... حدثت فوضى... تم القضاء عليه قبل التحول الكامل... هربت... الكل يموت هناك... لا أريد أن أموت.

أمسك يونس بذراعه وأدخله سريعًا.

قال يونس بحسم:

ـــ اهدأ... لن تترك هنا.

التفت إلى مها:

ـــ ابقي مع والدي حتى تعود أمي وبدر. لا تتركيه وحده.

قالت مها:

ـــ إلى أين ستذهبان؟

أجاب:

ـــ إلى مكان آمن... سأحاول علاجه... كما فعلت مع أبي.

نظر معتز إليه برجاء واضح.

قال معتز:

ـــ افعل أي شيء... فقط لا تتركني هناك.

أمسك يونس حقيبته، وألقى نظرة أخيرة على والده، الذي كان لا يزال واعيًا، ثم قال:

ـــ سنعود... لكن الوقت لا يسمح الآن.

أغلق الباب خلفه، وخرج مع معتز إلى المجهول، بينما كانت أول تجربة قد فتحت بابًا جديدًا... لا أحد يعرف إلى أين يقود.

بعد لحظات من خروج يونس ومعتز معًا، وبينما كانا يسيران على أطراف القرية تحت ضوء شاحب يتلاشى مع اقتراب الليل، قال معتز بصوت متقطع:

ـــ أبي لديه مخزن قديم... في أرضنا الزراعية عند أطراف القرية. لا أحد يذهب إلى هناك.

لم يُجب يونس، لكنه غيّر اتجاهه فورًا.

ـــــــ

قبيل حلول الليل بقليل، عادت بدر إلى المنزل بمفردها. أخبرت مها أنها أصرّت على بقاء والدتها مع خالتها بمنزلها حتى تستعيد عافيتها تمامًا، وأنها ستطمئنها على الأب أولًا بأول. جلست بدر إلى جوار مها، والقلق يخيّم على المكان.

حلّ الليل سريعًا.

وفجأة، طُرق باب المنزل.

قالت بدر بارتباك:

ـــ من بالباب؟

جاء الصوت هادئًا:

ـــ الدكتور بدوي.

فتحت الباب. دخل بدوي بخطوات واثقة، وتوجّه مباشرة إلى غرفة المهندس سليمان. راقب حالته بعين خبيرة، ولاحظ التحسّن الواضح.

قال بدوي:

ـــ المؤشرات أفضل... ماذا حدث؟

قال سليمان بصوت ضعيف:

ـــ يونس... هو من عالجني.

تدخّلت مها سريعًا محاولة صرف الانتباه:

ـــ كان مجرد متابعة... وراحة.

لكن بدوي لم يبدُ مقتنعًا. نظر إلى بدر وسأل:

ـــ وأين يونس الآن؟

قالت بدر بثبات مصطنع:

ـــ غادر قبل عودتي. وعندما يعود يمكنك سؤاله بنفسك. لم نكن هنا.

تقدّم بدوي، أجرى بعض القياسات، ثم قال بهدوء:

ـــ سأخذ عينات بسيطة للاطمئنان.

سحب قدرًا ضئيلًا من دم المهندس سليمان، دوّن ملاحظاته، ثم غادر دون كلمة إضافية.

———

في الطريق إلى المخزن.

عند اكتمال القمر فوقهم ، وتحت ضوء القمر.

توقّف معتز فجأة. انحنى وهو يضغط على صدره.

قال بصوت مبحوح:

ـــ ابتعد... الآن... أشعر بالتحوّل.

تراجع يونس مذعورًا، اختبأ خلف الأشجار الكثيفة. ومن هناك، رأى ما لم يكن مستعدًا له.

بدأ جسد معتز يتبدّل. العظام تتمدد، العضلات تنتفخ، والجلد يتمزق ليظهر تحته شعر أسود رمادي كثيف. صدره يحمل جرحًا غائرًا داكنًا، وعيناه تشتعلان بجنون.

تحوّل كامل... مستذئب.

وقبل أن يستوعب يونس المشهد، خرج من الظلام وحش آخر.

أضخم. أشدّ وحشية.

مستذئب ذو صدر مغطى بشعر فضي، وجسد مشوه بندوب قديمة. زأر بصوت شقّ الليل، وانقضّ.

اندلع قتال مرعب. وحشان يتصادمان، أنياب ومخالب، دماء تتناثر. كان معتز أقوى، ضرباته أعنف، لكن الآخر أسرع، أشرس، يهاجم بلا تردد.

ارتجفت الأرض تحت أقدامهما.

وفجأة، أضواء سيارات. أصوات صفارات. طلقات نارية. نيران اشتعلت لتشتيتهما.

هرب الوحشان في اتجاهين مختلفين.

سقط يونس على ركبتيه، يرتجف، ثم نهض واندفع نحو المخزن، قلبه يكاد ينفجر مما رأى.

———

في الجهة الأخرى، وصل بدوي مسرعًا إلى بيت مهجور في منتصف أرض زراعية يملكها الدكتور بدوى . توقف فجأة.

ظهر الوحش الآخر أمامه.

زأر... ثم ترنح.

انحنى ودخل القبو، وسقط أرضًا. بدأ جسده ينكمش، الشعر يتراجع، العظام تعود إلى مواضعها. دقائق مرعبة، ثم عاد إنسانًا.

الدكتور بلال.

كان ينزف، يتنفس بصعوبة.

الآن اتضحت الصورة.

بلال... أحد أذكى الأطباء في مصر، مفتون بالتجارب. بدأ بمحاولات تهجين حيواني. ماتت جميع العينات... إلا ذئبًا صغيرًا. الذئب هاجمه، ثم مات. لكن الإصابة لم تمت معه.

بلال تحوّل.

بدوي كان شريكه. لم يتوقف عن محاولة إيجاد علاج، أو على الأقل تقييده. لكن بلال كان يهرب أحيانًا... ويفتعل الكارثة.

علم ان هناك وحش أخر .

نظر بدوي إلى جراحه وقال:

ـــ أتوقع أنه معتز... الهارب من الطابق العلوي.

صديق يونس.

رفع بلال رأسه بصعوبة:

ـــ هل عاد ذاك الطبيب من الخارج؟

قال بدوي:

ـــ نعم... وقد عالج والده.

تبادل الاثنان نظرة ثقيلة.

قال بدوى وهو يراجع عينات والد يونس :

ـــ هناك علاج .. مصل من الخارج.

ـــ ذالك المصل... يقلل الأعراض... يؤخر التحوّل... لكنه لا يشفي. عينات دم والد يونس تؤكد ذلك.

سكت لحظة، ثم قال بصوت مبحوح:

ـــ يجب أن نحصل على ذلك المصل... مهما كان الثمن. إن تُرك الأمر هكذا... ستمتلئ البلاد بالوحوش.

ساد الصمت في القبو، ثقيلًا، قاتمًا، كأنه نذير بما هو آتٍ.

في المخزن، وقف يونس مذهولًا، لا يكاد يصدق ما رآه. كان المشهد يتكرر في رأسه بلا توقف. لم يعد هناك وحش واحد كما ظن الجميع... بل اثنان. معتز تحوّل، صار خطرًا حقيقيًا، لكن السؤال الذي أربكه أكثر كان: من ذلك الآخر؟ من تسبب في إصابة معتز ووالده؟ لم يكن هناك تفسير سوى وجود مصدر أقدم... وأخطر.

وقبل أن يكتمل التفكير، اخترق صمت المكان صوت محركات سيارات تقترب بسرعة.

أضواء قوية اجتاحت الظلام.

صاح صوت حاد:

ـــ شرطة! لا تتحرك!

حوصِر المخزن من كل الجهات. اقتحم الجنود المكان، ولم يُتح ليونس أي مجال للمقاومة. أُمسك به، قيّدت يداه، وسُحب خارجًا وسط فوضى الأوامر والضوء الصارخ.

———

في اللحظة نفسها، ورد اتصال عاجل إلى الدكتور بدوي.

قال الصوت في الهاتف:

ـــ تم القبض على الطبيب العائد من الخارج.

كان المتصل الضابط فارس، قائد الكتيبة الخاصة.

قال فارس:

ـــ تم ضبطه في محيط موقع اشتباه بتحول أحد المصابين الهاربين. وبعد ظهور وحشين في الليلة نفسها، صدر أمر مباشر بنشر الكتيبة في جميع أرجاء القرية. لا مجال للإنتظار الأوامر صدرت .

صمت بدوي لحظة، ثم قال:

ـــ الوضع أخطر مما تتصور.

أغلق الهاتف، وتحرّك فورًا باتجاه الشرطة، بعد أن قيّد بلال بنفسه، وأعطاه جرعة مهدئة تضمن عدم تحوله أثناء النقل.

———

من بعيد، كان معتز بجراحه يراقب.

رأى الجنود يقتادون يونس، ثم انسحبوا سريعًا. لم يقترب، لم يستطع. لكنه عاد إلى مكان اختبائه، ليجد حقيبة يونس ما زالت ملقاة بجوار الشجرة التي اختبأ خلفها أثناء القتال.

حملها، ونظر في اتجاه القرية.

كان يعرف وجهته.

———

في تلك الأثناء، كانت مها وبدر تجلسان في المنزل، التوتر يزداد مع كل دقيقة. الهاتف معلق .لا أثر ليونس. تبادلتا نظرات القلق، دون أن تنطق إحداهما بكلمة.

وفي الخارج، كانت القرية كلها تدخل مرحلة جديدة... مرحلة لم يعد فيها شيء مخفيًا، ولا أحد في مأمن.

-

وصل معتز إلى البيت مترنحًا، يضغط بيده على ذراعه المصابة. الجرح كان عميقًا، ينزف بغزارة، وعيناه تحملان ذعرًا لم تعرفه مها ولا بدر من قبل.

في الجهة الأخرى من القرية، كان بدوي يتحرك بعصبية، يحدث نفسه بصوت منخفض:

— الحل... الحل في البحث. لا مفر.

وتبلورت الفكرة سريعًا في ذهنه. قرر الضغط على يونس.

———

داخل محبسه، جلس يونس صامتًا، وعيناه ثابتتان، حين دخل بدوي في زيارة رسمية برفقة الضابط فارس. وما إن أغلق الباب طلب من فارس تركهم على انفراد ،وما إن خرج حتى تغيّر صوت بدوي.

قال بحدة:

— اسمعني جيدًا. إن لم تُفصح عن مكان البحث والمصل، سيقوم الظالط فارس باقتحام البيت. سيدمرونه حجرًا حجرًا. سيأخذون عائلتك للتحفظ، وأنت... ستقضي عمرك كله هنا.

رفع يونس رأسه ببطء.

— لا أملك شيئًا. ولا بالبيت شئ أقسم بذلك.

نظر بدوي في عينيه طويلًا، ثم خرج دون كلمة.

———

في تلك اللحظات، كان معتز قد دخل المنزل. جلسوا حوله، ومها تعالج ذراعه سريعًا. أخرج الحقيبة التي وجدها قرب الأشجار، وضعها أمامهم. كانت حقيبة يونس... بداخلها المصل وبعض متعلقاته.

بدأ معتز يحكي، بصوت متقطع، كل ما رآه. التحول، القتال، الوحش الآخر. ثم قال:

— سمعت بدوي يذكر اسمًا... دكتور بلال. قال إن البداية عنده.

ساد الصمت.

اندفعوا إلى غرفة الأب... لكنها كانت خالية.

توقف معتز فجأة، نظر إلى السرير، ثم قال بصوت مخنوق:

— انظروا... آثار حوافر.

أدركوا الحقيقة دفعة واحدة.

— لقد تحوّل... وهرب.

قالت مها بحسم:

— لا وقت. نغادر الآن. نترك البيت هادئًا، بلا أثر. إن جاءت الشرطة، لن تجد شيئًا.

قررت اصطحاب بدر ومعتز المصاب إلى بلدتها، إلى معملها الخاص. هناك فقط يمكن فحص كل شيء وتجربة المصل على معتز قبل اكتمال التحول.

———

قبل المغادرة، توجهت مها وبدر إلى قسم الشرطة، بينما بقي معتز عند أطراف البلدة، مختبئًا، ينتظر.

طلبت مها مقابلة يونس.

حين دخلت، قال لها بسرعة:

— بدوي يبحث عن البحث. سيضغط أكثر.

أخبرته بما رواه معتز، وباسم بلال.

وطمئنته على والدته ولم تخبره بأمر والده خشيه قلقه فى محبسه .

قال يونس بقلق:

— الوقت يداهمنا. التزمي بالبحث. اصنعي مصلًا... ابحثى عن حل. قبل أن ينهار كل شيء.

أومأت مها، وغادرت.

———

مع حلول الليل، التقى بدوي بالضابط فارس وسط جنوده.

قال بدوي:

— فتشوا منزل يونس. أنا متأكد أنه يخفي شيئًا مهمًا.

أجابه فارس بصرامة:

— القيادة تطالب بإنهاء الأمر سريعًا. لم يُكشف بعد وجود وحش ثانٍ. إن ظهر ذلك... سنفقد السيطرة.

تحركت الكتيبة، واقتحمت المنزل.

لكنهم وجدوه... فارغًا تمامًا.

لا أحد. لا أثر. لا دليل.

———

حين وصل الخبر إلى بدوي، شحب وجهه.

قال بقلق:

— حتى المهندس سليمان... هل أثّر فيه المصل إلى هذا الحد؟ رغم العينات؟هل تم شفائه؟.

لم يجبه أحد.

وكان ذلك الصمت، أخطر من أي عواء.

-

الفصل الخامس

لم يعد الليل يشبه ما عرفته القرية يومًا.

انتشرت الوحوش في الأزقة والحقول، ومع كل عواء كانت الأرض ترتجف. اشتعلت المعارك بين الكتيبة الخاصة وتلك الكائنات المتوحشة. طلقات نارية، صرخات، حرائق، وأخبار تتناقل همسًا ثم صراخًا:

وحشان في البلدة... وليس واحدًا.

———

استُدعي بدوي على عجل إلى أحد الأطراف الشمالية للقرية.

هناك، بيت ريفي صغير... أو ما تبقى منه.

عائلة كاملة قُتلت بوحشية. الجدران ملطخة بالدم، والأثاث محطم، والهواء نفسه مشبع برائحة الموت.

وقبل أن ينطق بدوي بكلمة، دوّى عواء قريب.

ظهر المستذئب فجأة.

انقضّ كالإعصار، قتل أحد الجنود بضربة واحدة، ثم ارتدّ وهو يتلقى رصاصة أصابت كتفه.

تراجع الوحش، يزأر، ثم اختفى بين الظلال.

تجمد بدوي في مكانه.

— ليس بلال...

لون الفراء أسود كامل، قاتم كالفحم.

لكن عقله عمل بسرعة.

— معتز...؟

لا.

مستحيل.

معتز مصاب بجرح بالغ في صدره. كان يجب أن يظهر عند التحول.

———

أمر فارس بتطويق المكان فورًا. دُمّر البيت بالكامل، وبدأ تتبع الآثار.

قادهم التتبع إلى حدود أرض زراعية مهجورة... أرض بدوي نفسها.

والبيت القديم القابع في منتصفها.

توقف الجنود.

صدر إنذار واضح:

ـــ ممنوع التقدم. لا أوامر بدخول الموقع.

الشرطة لا تعلم أن بدوي مرتبط بهذا المكان.

وقف بدوي عاجزًا.

الأوراق... الأبحاث... كل شيء هناك.

استغل لحظة ارتباك، تسلل سريعًا، جمع ما استطاع من الداخل.

لكن بلال... لم يكن موجودًا.

رفع بدوي عينيه إلى السماء.

القمر... مكتمل.

همس لنفسه:

ـــ لقد تحوّل الآن.

كان عليه الخروج سريعًا أمام الكتيبة، وإخبارهم أن المكان خالٍ.

لكن القدر سبقه.

ظهر بلال.

انقضّ كوحش مكتمل التوحش، دمّر سيارة بدوي بضربة واحدة.

زمجر، ثم هاجمه مباشرة.

تراجع بدوي مذعورًا.

هذه المرة... بلال لا يسيطر على نفسه.

فتح فارس النار، ونجح الجنود بصعوبة في تشتيت الوحش.

سُحب بدوي سريعًا، وهُرّب من المكان.

ـــــــ

وهو يلهث، كان بدوي يحدث نفسه:

ـــ اكتمل توحشه... انتهى. لم يعد بلال الذي أعرفه. الخطر بلغ نهايته.

لم يبقَ حل واحد.

ـــ يجب الوصول إلى يونس.

طلب بدوي إخراج يونس فورًا. قال لفارس:

ـــ عنده المصل. الأمر أخطر مما تتصور.

لم يجبه فارس.

غادر... ثم أجرى اتصالًا بالرؤساء.

الرد جاء باردًا وقاطعًا:

ـــ نفد صبرنا.

ثم صدر القرار.

الأمر انتهى. لا سيطرة.

اقضوا عليهم.

مسموح باستخدام أقوى الأسلحة.

مدرعات، متفجرات، طائرات.

كل الأنواع.

وتابع الصوت:

ـــ أي خسائر بين السكان... سيتم تعويضها.

ويعتبر فداء للوطن.

ـــــــ

أبلغ فارس بدوي بالتعليمات الجديدة.

ثم ذهب بدوي إلى يونس.

جلس أمامه، لأول مرة بلا أقنعة.

قال بصوت منهك:

ـــ سأحكي لك كل شيء.

روى له قصة بلال كاملة.

ذكاءه الحاد. هوسه. أبحاثه التي دمّرت سنوات تعب بدوي.

اكتشف مركب يعطى الإنسان قوه مطلقة.

قام بتجربته على الحيوانات... ماتوا جميعًا.

ثم الذئب الصغير.

ـــ قبل التجربة... كان عاديًا.

بعدها... تضخم، هاجم بلال، أصابه إصابة قاتلة.

الذئب مات فورًا... لكن بلال لم يمت.

تنهد.

ـــ عالجته. أخبرني بكل شيء. قال لي: أنا أحسب كل خطوة.

وعند اكتمال القمر...

وقف تحت ضوء القمر

طلب مني الابتعاد.

ثم تحوّل.

ـــ كل محاولات العلاج فشلت... وهكذا وصلنا إلى ما نحن فيه.

نظر بدوي إلى يونس:

ـــ أخبرني عن تحول معتز.

قال يونس بصوت منخفض:

ـــ تحول لمستذئب رمادي اللون... جرح كبير في صدره.

اتسعت عينا بدوي.

ـــ إذن... ليس هو.

المستذئب الأسود ليس معتز.

سكت الاثنان.

ـــــــ

خرج يونس مع بدوي.

وعند وصولهما إلى المنزل، صدر الأمر فورًا:

إقامة جبرية.

لا خروج.

لا تواصل.

الكل الآن تحت ضغط لا يُحتمل.

والقمر...

ما زال في السماء.

-

في الجانب الآخر

بعد يومٍ كاملٍ من الراحة القسرية في منزلها، حيث حاولت مها أن تُعيد لبدر ومعتز بعض التوازن، أخذتهما في الصباح التالي إلى مكان عملها.

كان المعمل يقع في مبنى قديم، بعيد عن العيون، لا يلفت الانتباه.

هناك، قررت مها أن تُقدم على الخطوة الأخطر.

خدّرت معتز تخديرًا كاملًا، وبعدها أعطته الجرعة الأولى من المصل.

كانت يدها ثابتة، لكن عينيها تفضحان توترًا عميقًا.

دخلت إلى المعمل.

استقبلها الدكتور محمود، مدير المعمل.

رجل هادئ، شديد الذكاء، دقيق الملاحظة، ومتميز في عمله...

لكن البيئة التي يعمل فيها لم تكن يومًا داعمة للنجاح.

ومع ذلك، كان يجتهد، بصمتٍ وعنيد.

أخبرته مها أن ما معها مجرد عمليات مسح للعينات، وفحوصات ضرورية.

لم تُفصِح عن شيءٍ آخر.

قال لها بهدوء:

ـــ المعمل لكِ. استخدمي ما تحتاجينه. وإن احتجتِ مساعدة... أنا موجود.

غادر، لكن شعورًا غامضًا لم يفارقه.

وجود شابٍ مُخدَّر في غرفة منفصلة... لم يكن أمرًا عاديًا.

———

داخل المعمل، كانت مها وبدر معًا.

الإرهاق ظاهر على وجهيهما.

ساعات طويلة بلا نوم، خوف، ترقب، وقلق لا ينتهي.

مرت مدة... ثم استفاق معتز.

في البداية كان وعيه مشوشًا، لكن سرعان ما بدأت العلامات تظهر.

توتر عضلي، تسارع أنفاس، ارتعاش خفيف.

قال بصوت متقطع:

ـــ المصل... أعطوني جرعة أخرى.

رفضت مها فورًا.

ـــ لا. الجرعة غير محسوبة... قد تقتلك.

لكن إصراره كان عنيفًا.

كان يشعر بالتحول يزحف داخله.

أمام توسلاته، اضطرت مها لإعطائه جرعة صغيرة.

لم تُوقف التحول... لكنها أبطأته.

———

كان الدكتور محمود يراقب من بعيد.

لاحظ الأجهزة، تغير القراءات، توتر الجو، ثم ضوء القمر المتسلل من النافذة.

فهم أن ما يجري أخطر بكثير مما قيل له.

اقترب من مها، وقال بصوت منخفض وحازم:

ـــ هذه أبحاث ممنوعة.

ـــ الإجراءات الأمنية مشددة جدًا هذه الأيام.

نظرت إليه مها، لأول مرة بلا دفاع.

ـــ أحتاج مساعدتك.

قصت له الأمر كاملاً.

لم يُجب فورًا.

نظر إلى بدر... كانت بالكاد تقف على قدميها من الإرهاق.

ثم نظر إلى معتز... حالته تتدهور، وصراعه مع التحول واضح.

لاحظ شيئًا آخر.

ضوء القمر.

قال بعد لحظة تفكير:

ـــ الظلام الدامس قد يساعد.

نقلوا معتز إلى غرفة أسفل العمارة تمامًا، بلا نوافذ، بلا أي ضوء طبيعي.

ثم التفت محمود إلى مها وقال بهدوءٍ حاسم:

ـــ سأعمل معكِ.

— يجب تسريع الأمر... قبل أن يصل إلى لحظة لا يمكن السيطرة عليها.

ساد صمت مقلق .

وفي الأسفل...

كان معتز يقاتل الوحش بداخله.

-

في المعمل، كانت مها تقف إلى جوار الدكتور محمود، محاطة بأنابيب الدم، وشرائح الخلايا، ونسخٍ مفتوحة من البحث والملاحظات المكتوبة بخطٍ متعجل.

عينات دم معتز، ومسحات من أنسجته، كانت تخضع لمحاولات متتابعة:

إضافة تركيبات، تعديل نسب، مراقبة التفاعل، ثم إعادة الفحص.

المصل...

لم يعد مجرد فرضية.

بعد أيام من العمل المتواصل، بدأت النتائج تظهر بوضوحٍ مخيف.

داخل المختبر، استطاع المصل القضاء على الجينات المتحولة داخل خلايا معتز المعزولة.

الخلايا كانت تموت... أو تعود إلى نمطها البشري.

مها قالت :

— لابد أن يرى يونس النتيجة هو من سيكمل كل هذا .

لكن الواقع خارج المجهر كان أكثر قسوة.

حالة معتز تتدهور بسرعة.

نوبات عنف مفاجئة، قوة غير طبيعية، تحطيم جدران الغرفة السفلية.

كلما اشتد التحول، كان صوته يملأ المكان بزئيرٍ مكتوم.

لاحظ محمود أولًا، ثم تأكدت مها:

الضوء القمري هو المفتاح.

كلما ابتعد معتز عن أي مصدر ضوء، انخفض التحول إلى مستوى يمكن احتواؤه.

لكن مجرد تعرّض مباشر لضوء القمر...

كان كافيًا لتحولٍ كامل، لا يمكن السيطرة عليه.

———

في الجهة الأخرى، كان يونس والدكتور بدوي يعيشان تحت إقامة جبرية مشددة.

جنود الكتيبة الخاصة يحيطون بالمنزل ليلًا ونهارًا.

لا حركة بلا إذن.

لا اتصال بلا مراقبة.

داخل هذا القفص الهادئ ظاهريًا، دار حديثٌ ثقيل.

قال يونس فجأة، وكأنه كان يهرب من الفكرة:

— لم يتبقَّ سوى واحد.

نظر بدوي إليه ببطء.

— تقصد...؟

— المتحوّل الثالث.

— ليس بلال... ولا معتز.

ساد صمت قاتل.

ثم قالها يونس بصوتٍ خافت:

— سليمان... والدي.

الصدمة لم تكن في الاسم...

بل في السؤال الذي تلاه مباشرة:

أين معتز؟

———

في الخارج، كانت القرية تحترق ببطء.

أصوات إطلاق النار والانفجارات كانت تتردد من الجبل المحيط.

الليل لم يعد صامتًا أبدًا.

البيت المهجور في الأرض الزراعية...

اقتُحم، ثم دُمّر بالكامل بضربةٍ مباشرة من طائرة عسكرية.

لكن ذلك لم يكن كافيًا.

بلال وسليمان خرجا عن السيطرة تمامًا.

في اشتباكٍ واحد، قضيا على مجموعة كاملة من جنود الكتيبة الخاصة.

الناجون تحدثوا عن ظلالٍ سوداء تتحرك أسرع من الرصاص.

الذعر انتشر في القرية، ثم في القرى المجاورة.

والدولة... بدأت تشعر بالخطر الحقيقي.

———

الضغط الأمني والسياسي بلغ ذروته.

مقتل الجنود، وفشل العمليات، وانفجار الأحداث في الجبل،

كلها وضعت القيادة أمام مأزق غير مسبوق.

قوة بلال وسليمان المتحولين كانت أكبر من أي تقدير سابق.

والسيطرة... أصبحت شبه مستحيلة.

يونس وبدوي أصبحا تحت رقابة أشد.

أي محاولة لإجراء تجربة، أو نقل عينة، أو حتى تبادل حديثٍ علمي...

كانت مغامرة قد تنتهي بالاعتقال أو التصفية.

———

أما المتحوّلون...

معتز ما زال في المنتصف.

تحول جزئي، جسد يتألم، وعقل يقاوم.

الظلام يضعفه، والمصل يبطئه... لكنه لم يشْفِه بعد.

أما سليمان وبلال...

فقد تجاوزا نقطة العودة.

وحشان طليقان.

تهديد مباشر لكل ما بقي من القرية...

ولكل من يحاول إيقاف الكارثة.

والوقت...

لم يعد في صالح أحد.

-

بدأ النهار بلا شمسٍ ذهبية .

بضوءٌ باهت يتسلل من خلف الستائر ، الصباح نفسه متردد في الدخول إلى هذا البيت المحاصر.

العجز هو الشعور الأول ما شعر به يونس، قيد مصطنع، يخترقه وقع خطوات الجنود خارج الجدران.

نهض ببطء، مرّ بجوار النافذة دون أن يفتحها.

كان يعرف المشهد:

نقطة حراسة عند البوابة،

جنديان أسفل الشجرة،

سيارة مظللة لا تغادر مكانها.

الإقامة الجبرية...

كان قرارًا، وواقعً يُفرض بالنفس الطويل.

في غرفة الجلوس، كان بدوي يجلس وقد وضع هاتفه على الطاولة، يحدق فيه كما لو كان جهازًا ميتًا.

قال يونس بهدوء:

— هل ردّ فارس؟

هزّ بدوي رأسه نفيًا.

— منذ الفجر... لا اتصال، لا رد، لا حتى رسالة مقتضبة.

ضغط زر الاتصال مرة أخرى.

رنّ الهاتف...

ثم انقطع.

لا شبكة.

أو شبكة مقصودة.

جلسا متقابلين، لا حديث في البداية.

كلٌ منهما يحسب الوقت بطريقته.

———

المحاولة الأولى كانت هادئة.

اقترب يونس من الباب الأمامي، فتحه نصف فتحة، ألقى نظرة عابرة، ثم قال:

— أريد الخروج لدقائق... هواء فقط.

لم يتحرك الجندي، فقط قال بصوتٍ جامد:

— الأوامر واضحة، يا دكتور.

ـــ أنا طبيب. وجودي هنا دون عمل يزيد الوضع سوءًا.

اقترب ضابط شاب، نظر في ملفٍ بيده، ثم قال:

ـــ أي خروج يتم بأمر مباشر من القيادة.

أغلق يونس الباب ببطء.

لم يكن يتوقع غير ذلك.

———

مرت ساعة...

ثم أخرى.

بدوي يحاول الاتصال بفارس مرة بعد مرة.

يحاول أرقامًا قديمة، أرقام طوارئ، حتى خطوطًا لم تُستخدم منذ سنوات.

لا رد.

قال بدوي أخيرًا، بصوتٍ بدأ يفقد ثباته:

ـــ إما أنه مُنع من الرد... أو أن الأمر خرج من يده تمامًا.

يونس لم يعلّق.

كان عقله يعمل في اتجاهٍ آخر.

———

المحاولة الثانية كانت علمية.

أخرج يونس بعض الأوراق، اقترب من الضابط المناوب، وقال:

ـــ لدينا تطورات طبية خطيرة. أي تأخير قد يؤدي إلى خسائر بشرية.

تصفح الضابط الأوراق بلا اهتمام حقيقي.

ـــ نُقدّر ذلك، لكن التعليمات الأمنية أعلى.

ـــ هذه ليست أوراقًا... هذه حياة ناس.

رفع الضابط عينيه للحظة، ثم قال:

ـــ وأنا أحمي حياة ناس أيضًا.

عاد يونس أدراجه.

———

منتصف النهار.

الحرارة ارتفعت، والبيت صار خانقًا.

لا مراوح، لا نوافذ مفتوحة.

كأن الهواء نفسه تحت الحصار.

جلس بدوي واضعًا يديه على رأسه.

— لو أجاب فارس مرة ... لما وصلنا إلى هذا.

قال يونس بمرارة:

— هذا يعني أن القرار لم يعد ميدانيًا.

حاولا كسر الحصار من الداخل.

تفقدا الجدران الخلفية.

باب المخزن الصغير.

السور القديم.

كل منفذ... مراقَب.

حتى السطح.

———

المحاولة الثالثة كانت مخاطرة.

اقترب بدوي من أحد الجنود الذين يعرفهم معرفة قديمة.

— فقط رسالة... دقيقة واحدة.

نظر الجندي حوله بتوتر.

— لا أستطيع... الكاميرات في كل زاوية.

— فارس يعرفني.

— فارس لا يرد على أحد اليوم.

كانت هذه الجملة كفيلة بإسقاط آخر أمل مؤقت.

———

مرّ النهار كاملًا.

الزمن صار حائط صد، تُسحب ببطء.

كل دقيقة تمر...

تعني اقتراب القمر.

قال يونس أخيرًا، بصوتٍ خافت لكنه حاسم:

— إن بقينا حتى الليل... سنفقد السيطرة.

نظر إليه بدوي.

— كسر الإقامة الآن يعني صدامًا مباشرًا.

— وعدم كسرها يعني كارثة.

هدوء مريب.

ثم عاد بدوي إلى الهاتف، وضغط رقم فارس مرة أخرى، كأن التكرار نفسه صار فعل مقاومة.

لا رد.

أغلق الهاتف، ونظر إلى يونس.

— نحن وحدنا الآن.

خارج الجدران،

الجنود ثابتون،

الأوامر لا تتغير،

والنهار...

كان ينسحب ببطء،

ممهّدًا لطولٍ آخر...

أخطر.

-

في معمل الهندسة الجينية بمدينة ملوي، كانت مها تقف أمام شاشة التحليل، تتابع النتائج المتتابعة دون أن ترفع عينيها. بجوارها، كان الدكتور محمود يراجع القيم الرقمية بدقة، بينما جلست بدر قريبة منهما، تتابع ما يجري بعينين مرهقتين.

قال محمود:

— النتائج الأولية واضحة.

رفعت مها رأسها.

— المصل نجح في كبح الجينات المتحولة داخل الخلايا المعزولة.

قالت بدر:

ـــ داخل المعمل فقط؟

ـــ حتى الآن، نعم ـــ أجاب محمود. ـــ التأثير مثبت مخبريًا، لا أكثر.

قالت مها:

ـــ لا يمكن الانتقال إلى المرحلة التالية دون يونس.

نظر محمود إليها.

ـــ القرار ليس تقنيًا فقط. التجربة على معتز تحمل مخاطرة حقيقية.

قالت بدر:

ـــ ومعتز وقته ينفد.

أجابت مها:

ـــ ولهذا نحتاج يونس. هو من صمّم المصل، وهو من يعرف حدوده.

قال محمود:

ـــ الدكتور يونس خطيبك أشرف على البحث.

ـــ إذاً ، الخياران أمامنا واضحان:

إما نُجري التجربة هنا دون إشرافه الكامل،

أو نذهب إليه ونعرض النتائج عليه.

قالت بدر بقلق:

ـــ لكن اخى يونس في محبسه الان...

تفاجأ محمود وسال عن السبب :

الاجابه كانت بسبب معتز وتحول ظنوا انه على علم بما يحدث .

تقدمت مها خطوة نحو الطاولة.

ـــ الآن ، إن جربنا المصل وفشل، سنفقد معتز.

وإن انتظرنا أكثر، قد يتحول بالكامل.

قال محمود:

ـــ الذهاب إلى يونس قد يكون مستحيلًا.

قالت بدر:

ـــ والبقاء هنا دون قرار أخطر.

نظرت مها إلى العينة أمامها.

ـــ العمل توقف عند هذه النقطة.

ثم قالت بحسم:

ـــ لا تجربة دون يونس، ولا انتظار بلا خطة.

نظر محمود إليها.

ـــ إذن نتحرك.

قالت بدر:

ـــ إلى أين؟

أجابت مها:

ـــ نبدأ بمحاولة الوصول إلى يونس.

وإن تعذر ذلك... نعود إلى هذا الخيار، مهما كانت كلفته.

باتفاق غير معلن.

النتائج جاهزة، والمصل موجود، والوقت يعمل ضدهم.

-

الفصل السادس :

اشتدّ الحصار حول يونس،الضيق سيطر على عقله

ما مر به منذ قدومه والقيد المستمر .

جلس قبالة بدوي في غرفة المعيشة، والعينان متواجهتان.

في نظرة يونس اتهام صريح، وفي ملامح بدوي صلابة لا تعرف التراجع.

قال يونس:

ـــ أتدرى ،أنت السبب.

لم يرفع بدوي صوته، لكنه لم يُنكر.

ـــ كنتُ على علم، نعم.

قال يونس بحدة:

ـــ وكنتَ تعلم إلى أين يقود هذا الطريق.

أموات، متحوّلون، قرية بأكملها تعيش الرعب... وكل ذلك وأنت صامت.

تنفّس بدوي بعمق، ثم قال:

ـــ لم يكن صمتًا، بل تقديرًا للمخاطر.

ما اكتشفه بلال لم يكن عبثًا، بل تطورًا غير مسبوق.

كنت أبحث عن علاج، عن حل ينقذنا جميعًا.

قال يونس:

ـــ تنقذ من؟

نفسك؟ أبحاثك؟ أم غرورك؟

وقف بدوي.

ـــ اعترف، أخطأنا في الحسابات.

لكن الهدف لم يكن الهلاك، بل التقدّم.

هذه القوة، إن أُحسن التحكم بها، يمكن أن تغيّر ميزان الإنتاج، الدفاع، المستقبل كله.

قال يونس وهو ينظر إليه بثبات:

ـــ هذا طمع، لا علم.

أغلقتم أعينكم عن الضرر، ثم سميتموه ثمنًا مقبولًا.

تقدّم خطوة.

ـــ ما ذنب أهل القرية؟

ما ذنب من ماتوا لأنكم قررتم أن الوطن يتقدّم فوق أجسادهم؟

اشتدّ صوت بدوي:

ـــ الوطن لا يتقدّم بالخوف من التجربة.

قال يونس:

ـــ ولا يتقدّم بالجريمة.

ساد توتر واضح. بدوي ما زال واقفًا، متمسكًا بفكرته، رافضًا الاعتراف الكامل بالخطأ. ويونس يدرك أن الحوار لم يعد يجدي.

قال يونس أخيرًا:

ـــ أفكاركم هذه لن تنقذ أحدًا.

الحل ليس عندكم، ولا في أوهام السيطرة.

نظر إلى الباب ثم عاد بعينيه إلى بدوي.

ـــ ما نحتاجه الآن علاج، لا تبريرًا.

وإن لم نتحرك، فلن يبقى شيء يمكن إنقاذه.

لم يردّ بدوي.

والدائرة ضاقت أكثر.

-

هناك .

كان فارس يقف في المقدمة، مرتديًا سترته المدرعة، محاطًا بجنوده الذين انتشروا في نصف دائرة عند الطريق المؤدي إلى البيت المهجور الذي لم يبقَ منه سوى أطلال سوداء.

التحريات كانت واضحة هذه المرة؛ كل الآثار، كل البلاغات، تقود إلى هذا المكان.

وللمرة الأولى، بدأ الشك يتسلل إليه بوضوح.

قال أحد الضباط وهو ينظر لفارس :

ـــ كنا نتحرك دائمًا وفق تعليمات الدكتور بدوي...

قال فارس :

ـــ لكنه كان يخفي عنا شيئًا.

ـــ هذه الأرض ملكا له ، الم يكن يعلم بهذا المكان .؟!

سأله الظابط:

ـــ ماذا ترى ياسيد فارس؟.

لم يردّ "فارس.

كان ينظر إلى السماء.

اكتمل القمر.

وفي اللحظة التي انكشف فيها القرص الفضي كاملًا،

وتحت ضوء القمر .

تغيّر الهواء.

برد مفاجئ، ثم حركة عنيفة بين الأنقاض.

صرخ جندي:

ـــ حركة... هناك شيء يتحرك!

خرج الوحش.

لم يكن إنسانًا، ولم يعد حيوانًا.

جسد ضخم، عضلات مشدودة، عظام بارزة تحت جلد داكن، رأس ذئب مكتمل الملامح، وعينان تعكسان ضوء القمر بوحشية خالصة.

وخلال ثوانٍ، اكتمل التحول.

اندفع الوحش كالإعصار.

اصطدم بإحدى العربات المصفحة، فاهتزت بعنف، وتراجعت مترين كاملين.

أطلق الجنود النار، زخّات متتالية، لكن الرصاص كان يبطئه ولا يوقفه.

صرخ فارس:

— تماسكوا! لا تفتحوا الصفوف!

اندفع بنفسه للأمام.

فارس كان قويًا، سريع الحركة، اعتاد الاشتباك، يعرف كيف يراوغ، كيف يضرب ثم يتراجع.

واجه الوحش مباشرة، تفادى مخالبه بصعوبة، سدد ضربة بسلاحه إلى صدره، لكن الرد جاء أعنف.

ضربة واحدة أطاحت به أرضًا.

ارتطم جسده المدرع بالحجارة، وشعر بالهواء يخرج من رئتيه دفعة واحدة.

نهض بصعوبة، رفع سلاحه مرة أخرى، لكن الحقيقة كانت واضحة:

لا مجال للمواجهة المباشرة.

وفجأة...

دوّى عواء آخر.

عواء مختلف.

أعمق، أطول، أشد حضورًا.

تجمّد الجميع.

رفع فارس رأسه ببطء، ونظر إلى أعلى الجبل.

وهناك، تحت ضوء القمر، وقف مستذئب آخر.

أضخم.

أهدأ.

أكثر رعبًا.

وعلى كتفه الأيسر، تدلى ذراع ممزق، بقايا بلطو طبي أبيض، ملطخ بالدم.

اتسعت عينا فارس.

للمرة الأولى، رأى الحقيقة بعينيه.

التقى الوحشان.

تبادلا نظرة قصيرة، بلا صوت، بلا حركة.

فهم صامت بين كيانين خرجا من حدود البشر.

رفع فارس يده فورًا.

ـــ أوقفوا إطلاق النار!

ثم صاح:

ـــ زرع المتفجرات حول الجبل... الآن!

تحركت الكتيبة بسرعة، دون جدال.

هذا لم يعد اشتباكًا عاديًا.

استدار فارس ببطء، نظر في اتجاه بيت يونس، ثم قال بصوت منخفض، موجّهًا كلامه إلى بدوي، كأنه يقف أمامه:

ـــ هناك شئ ناقص...

وأنت الوحيد الذي يعرفه.

شدّ قبضته.

ـــ إن لم تقله الآن، فهذه ستكون النهاية.

ظل القمر معلقًا في السماء، شاهدًا صامتًا.

والرعب لم يعد احتمالًا... بل واقعًا مكتملًا.

-

وعند ازدياد الضيق.

قال فارس بصوت حاسم أمام الجنود:

انتهى الأمر هنا.

ثم أضاف دون أن يلتفت:

أنا ذاهب إلى الأهم.

———

تحرك بمفرده باتجاه المنزل .

دخل فارس منزل يونس.

لم يجلس.

نظر إلى يونس، ثم إلى بدوي.

قال فارس:

في البداية، كان القرار من الرؤساء.

حبسكم في إقامة جبرية بدلًا من السجن.

احترامًا لما كنتم عليه، لا لما صرتم إليه.

سكت لحظة قصيرة، ثم التفت إلى بدوي مباشرة:

أما الآن، فقد تأكدت.

لك يد في كل ما حدث.

قال بدوي سريعًا:

هذا غير صحيح.

رد فارس:

التحريات انتهت.

قال بدوي بنبرة دفاعية:

كنت أبحث عن حل.

لم أكن أبحث عن إبادة.

لو اكتمل الأمر كما خططت له، لكان انتصارًا.

كنا سنسيطر عليه.

ما حدث انتكاسة فقط.

نظر يونس إلى بدوي بحدة:

انتكاسة؟

القرية تحترق.

جنود يموتون.

أبرياء يُطاردون.

وتسمي هذا انتكاسة؟

قال بدوي وهو يرفع صوته:

كنت أعمل للوطن.

قال فارس ببرود:

الوطن لا ينتظر تجاربك.

ثم أكمل:

أمامنا حل واحد.

الإبادة.

قال يونس فورًا:

لا.

نظر فارس إليه:

حتى لو سقط مدنيون.

الأوامر واضحة.

سيُحسبون فداءً للوطن.

وسيُعوض أهلهم.

قال يونس بثبات متوتر:

أرفض.

اقترب خطوة واحدة:

أطلب مهلة.

تجربة واحدة فقط.

قال فارس:

لا وقت.

قال يونس:

لو وصلت إلى خطيبتي، الدكتورة مها.

هي تعمل على علاج.

أحد المتحولين معهم الآن.

اسمه معتز.

أنا واثق بها.

قال فارس:

الواثق يموت أولًا.

قال يونس دون تردد:

إن فشلت التجربة،

أوافق على الإبادة.

حتى إن كان المتحول الثاني في القرية هو والدي.

سأقف جانبًا وأراه يموت.

ساد صمت قصير.

قال بدوي بصوت مكسور:

يونس...

قاطعه يونس:

أنت السبب.

نظر فارس إلى الاثنين.

لم يقل نعم.

ولم يقل لا.

قال أخيرًا:

سأنقل طلبك.

لكن لا تنتظر ردًا.

استدار نحو الباب.

قال يونس خلفه:

تجربة واحدة.

لم يلتفت فارس.

خرج.

———

جلس بدوي على الأرض.

صوته منخفض:

كنت أريد أن أُنقذ.

قال يونس:

الإنقاذ لا يكون على جثث الناس.

رفع بدوي رأسه، عيناه فارغتان:

انتهى كل شيء.

نظر يونس إلى الباب المغلق.

قال بهدوء مضطرب:

لم ينتهِ بعد.

ما زالت هناك تجربة واحدة.

سيوافقون بإذن الله.

-

وهناك فى المعمل،

كانت مها تقف أمام الطاولة الأخيرة في المعمل، والنتائج بين يديها، مرتبة، واضحة، لا تحمل وعدًا كاملًا ولا فشلًا صريحًا.

بدر بجوارها، تتابع الأرقام دون تعليق، تعرف أن هذه اللحظة ليست للجدل بل للقرار.

محمود يراقب معتز من خلف الزجاج.

الخوف ظاهر عليه.

خائف منه، وخائف عليه.

يرى في عينيه بقايا التحول، رغم تراجع المؤشرات، ورغم استجابة الجينات داخل العينات.

يعرف أن المصل يعمل، لكنه لم يلغِ الخطر.

قال محمود بصوت منخفض:

التحسن حقيقي.

لكن التأثير لم ينتهِ بعد.

أي خطأ... وأي تغير... قد يعيد كل شيء.

سكت لحظة، ثم قال بهدوء مختلف:

مع ذلك، أنا مؤمن أن الله لا يترك من تعب وبحث.

بعد كل هذا، لن تكون النهاية هنا.

نظرت إليه مها:

سنذهب إليه.

يونس يجب أن يرى النتائج بنفسه.

قال محمود فورًا:

سأبقى هنا.

معتز لن يُترك وحده.

إن حدث أي تغير، سأتصرف.

بدر:

نعود بسرعة.

أومأ محمود:

سأنتظركم.

———

في صباح اليوم التالي، خرجت مها وبدر باتجاه قرية يونس.

النتائج معهما.

القرار لم يُتخذ بعد.

كل ما يعرفانه أن يونس في السجن، وأن الوصول إليه صعب، لكن ضروري.

قالت بدر أثناء الطريق:

كيف سندخل إليه؟

قالت مها:

سنجد طريقة.

لا يمكن أن نعود الآن.

لم تعلما أن يونس لم يعد في السجن.

وأن السجن الجديد الأن أصبح منزل العائلة.

المعلومة المؤكده لهم الأن ،

أن الوقت لم يعد في صالح أحد.

الطريق يمتد أمامهما.

والقرار ينتظرهما هناك.

يونس وقف أمام النافذة، عيناه ثابتتان في السماء.

يحدث نفسه :

ـــ لم يجب فارس بعد.

ثم سأل نفسه بصوت منخفض:

ـــ أين أنتم؟

تردد الصدى في أرجاء الغرفة، فارغًا، بلا جواب.

خاطب قلبه وعقله في آن واحد:

ـــ مها... بدر... معتز... أين أنتم الآن؟

صمت الرد، وزاد القلق في صدره، لكنه ظل واقفًا، يراقب السماء، ينتظر أي حركة، أي إشارة.

•

الفصل السابع

وصلوا مع الفجر.

الطريق إلى القرية لم يعد كما كان.

كمائن الشرطة ظهرت أولًا، متقاربة، متوترة. تفتيش دقيق، أسئلة سريعة، نظرات شك لا تخفى. العبور من الكمين الأول تم بصعوبة، بعد تدقيق طويل في الأوراق والوجوه.

في الشوارع، الناس تتحدث همسًا. الخوف حاضر في كل زاوية. مكبرات الشرطة تسمح بالحركة نهارًا فقط. الليل محظور: لا أنوار، لا خروج، فقط أصوات طلقات نارية متقطعة، وانفجارات بعيدة، وعواء يقطع السكون.

آخر كمين كان تابعًا لكتيبة فارس.

أوقفهم الجنود بحزم.

ـــ إلى أين؟ ولماذا الآن؟

أجابت بدر بثبات متكلف:

ـــ نحن من سكان القرية، عائدتان إلى منزل العائلة.

نظر المجند إليهما طويلًا، ثم قال:

ـــ الوضع شديد الخطورة. هذه إجراءات أمنية. التحرك مراقب.

طال الحوار. الأسئلة تكررت. الشك ازداد.

وفجأة انفجرت بدر:

ـــ أنا أخت الدكتور يونس... وابنة المهندس سليمان.

ساد صمت قصير.

التفت أحد الجنود فورًا، رفع يده، وأوقف المرور.

ـــ تحفّظوا عليهم.

اقتيدتا جانبًا، والقلق يتصاعد. بعد مدة، وصل فارس.

نظر إليهما مباشرة، دون مقدمات.

سأل ببرود:

ـــ أين معتز؟

تبادلت مها وبدر نظرة سريعة.

أجابت بدر:

ـــ لا نعلم شيئًا عنه منذ غادرنا.

قال فارس:

ـــ يونس ذكر أنه معكم.

تحركت مها خطوة للأمام:

ـــ هذا غير صحيح. نريد لقاء يونس الآن.

ـــ إنه فى هذا السجن ظلماً.

تغير وجه فارس قليلًا، ثم قال:

ـــ يونس ليس في السجن. هو تحت الإقامة الجبرية... في منزل الأسرة.

ارتجفت بدر، واتسعت عيناها.

قال فارس بلهجة حاسمة:

ـــ ستأتون معي.

استدار، وأشار للجنود.

تحرك الموكب باتجاه منزل العائلة، حيث ينتظر يونس... وبدوي

-

في الجانب الآخر، داخل المعمل.

جلس محمود أمام الشاشة، عينيه ثابتتان، لا ترمشان.

النتائج لم تعد تحتمل التأويل.

المصل لا يقتل التحول.

ولا يلغِه.

ولا يستأصله.

همس محمود بصوت مبحوح:

— لا... هو لا يدمّر الجينات.

تقدّم خطوة، أعاد قراءة المنحنيات.

ثم فهم.

— هو يعيد ضبطها.

شعر ببرودة تسري في أطرافه.

هذا أخطر مما توقع.

في الغرفة السفلية، كان معتز يتقلّب.

جسده لم يكتمل تحوله، لكن عينيه لم تعودا ثابتتين.

أنفاسه متقطعة، يضغط بيده على صدره حيث الجرح القديم.

ارتجف.

انحنى.

ثم رفع رأسه فجأة.

صوته خرج غليظًا، ليس صراخًا، بل مقاومة:

— لن... تقدر.

شد على أسنانه، عروقه بارزة.

— سأحاول.

سكت لحظة، وكأنه يصغي لشيء لا يسمعه أحد غيره.

— لا... لا مجال.

جسده لم يتمزق، لم يتشوه كليًا.

لكن شيئًا داخله كان ينفلت ثم يُجبر على التراجع.

محمود يراقب من خلف الزجاج.

لا يرى وحشًا كاملًا، ولا إنسانًا كاملًا.

يرى صراعًا.

معتز يضرب الجدار بقبضته، لا بقوة التحول، بل بقوة الإرادة.

يتراجع خطوتين، يسند نفسه.

— لن... أتركك.

قالها وهو يلهث، وكأن الحديث موجّه لشيء يسكنه.

— لن... أسمح.

لحظة صمت.

ثم انخفض صوته:

— سأبقى.

محمود ابتلع ريقه.

هذا ليس تحولًا جسديًا فقط.

هذا انقسام... ثم محاولة إعادة السيطرة.

همس لنفسه، وهو يشعر بالخوف يطبق على صدره:

— هو لا يقاتل المصل...

— هو يقاتل نفسه.

وخارج الغرفة، القمر يواصل صعوده ببطء.

في القرية.

وصل فارس ورجاله، تتوسطهم مها وبدر.

الأسلحة مرفوعة، الوجوه متجهمة، التوتر يسبق الخطوات.

دخلوا المنزل.

كان يونس في الداخل.

ما إن رأته بدر حتى اندفعت نحوه، احتضنته بقوة.

شدّت ذراعيها حوله، وكأنها تتحقق أنه ما زال حيًا.

اقتربت مها، وضعت يدها على كتفه.

ـــ هل أنت بخير؟

أومأ يونس.

ثم التفتتا معًا، ولاحظتا وجود بدوي.

سألت مها بصوت منخفض:

ـــ ماذا يفعل هنا؟

أجاب يونس بهدوء ثقيل:

ـــ أمر سيادي.

ـــ عرفوا الحقيقة... وعرفوا ما فعله.

التفتت مها إلى فارس مباشرة:

ـــ ولماذا الإبقاء على يونس؟

ـــ وهو قد يكون الحل بيده؟

نظر فارس إليها دون تردد:

ـــ طال الصبر.

ـــ كل خيارات العلاج التي طُرحت، وكل اقتراحات الدكتور بدوي... كانت نتيجتها ثلاث وحوش.

ـــ أسر كاملة تموت.

ـــ وجنود يُقتلون.

تقدّم خطوة.

ـــ الحل الآن هو القوة.

ـــ القبضة الحديدية.

ثم أضاف ببرود:

ـــ أصبنا أحد الوحوش في قدمه.

ـــ والآخر في رأسه.

ـــ نهايتهم اقتربت.

ساد صمت قصير.

ثم قال فارس:

ـــ مسحنا القرية.

ـــ لا أثر لهم.

ـــ فقط اكتمال القمر، وضوءه الحاد، ثم العواء.

تحدث بدوي بصوت خافت، متهدج:

ـــ هذا غباء.

التفت إليه فارس بعينين قاسيتين.

ـــ ماذا قلت؟

رد بدوي:

ـــ سيموت الجميع.

ـــ القوة ليست الحل الأمثل.

قاطعهم يونس فجأة:

ـــ مها... ماذا فعلتم؟

نظرت إليه لحظة، ثم بدأت تتحدث بحذر.

لم تذكر مكانًا.

لم تذكر أسماء.

تحدثت عن الأثر، عن تغيّر سلوك المصل، عن إعادة الضبط دون قول الكلمة صراحة.

فهم يونس.

رفع رأسه نحو فارس:

ـــ أريد الجلوس مع مها وبدر وحدنا.

ـــ لفهم المعادلات.

ـــ دون بدوي.

نظر فارس إلى بدوي، ثم إلى يونس.

ـــ لا أرجّح ذلك أيضًا.

توقف لحظة، ثم قال:

ـــ أمامكم بعض الوقت.

ـــ تفضلوا.

تحرّك برجاله، وقفوا عند الباب، أسلحتهم جاهزة، أنظارهم لا تغفل.

جلست مها، وبدأت تسرد ليونس القصة كاملة.

منذ البداية.

حتى النتيجة الأخيرة.

ـــ هناك أمل.

ـــ لكنه يحتاجك.

تنفست بعمق.

ـــ معتز لم يُشفَ بعد.

ـــ هو الآن بين التحول والمصل.

ـــ بين البقاء إنسانًا... والانزلاق.

قالت بصوت منخفض:

ـــ هو يتعذّب.

نظر يونس نحو فارس، ثم قال بهدوء قاتل:

ـــ رجال القوة لا يفهمون هذا.

ـــ لأن من تعوّد الحسم بالسلاح لا يعرف معنى الانتظار.

ـــ ولا يملك صبرًا على حلٍّ لا يُسمَع فيه صوت الرصاص.

-

سقط معتز على الأرض فجأة.

جسده ارتجف، أنفاسه تقطّعت، وعيناه انغلقتا بعنف.

اندفع محمود نحوه، سحبه بصعوبة إلى غرفة العناية المركزة.

ثبّت الأجهزة، عدّل الجرعات، حاول أن يعيد الإيقاع إلى جسد ينهار.

الغرفة بها شباك واحد.

ضوء القمر تسلل بلا استئذان.

دخل محمود ليطمئن عليه.

في اللحظة نفسها...

ارتفع صدر معتز فجأة.

انفتحت عيناه بلون داكن.

تشقّق الجلد عند الصدر.

الجرح القديم...

الجرح الواسع في منتصف صدره...

أضاء بلون فضي واضح، نابض، كأنه قلب آخر.

العظام تحرّكت.

الصدر اتسع.

الأطراف تمددت بقوة غير إنسانية.

شهق محمود، تراجع خطوة، ثم سقط على الأرض من هول ما رأى.

معتز لم يفقد وعيه بالكامل.

كان يرى.

كان يشعر.

لكن السيطرة تنفلت.

نهض، دفع الأجهزة، حطّم الشباك بكتفه، والزجاج تناثر.

حاول محمود منعه دفعه معتز المتحول بقوه.

سقط على الارض مصابا.

قفز إلى الخارج.

اتجاهه كان واضحًا.

غريزة الوحش قادته، لكن عقله كان حاضرًا جزئيًا.

الهدف واحد:

بلال.

———

في القرية.

بلال وسليمان نجَوَا من الفخاخ.

إصابات واضحة.

سليمان في كتفه وظهره.

بلال في قدمه، يعرج لكنه لا يتوقف.

تحت ضوء القمر...

اكتمل التحول.

القوات تحاصر الجبل.

وتحاصر كل الإتحاهات نحو الأراضي المهجورة.

ونحو الاراضى الزراعيه .

لكنهم عبرا .

ثم ،

تحولا داخل القرية، في مكان مظلم تمامًا.

إلا من ضوء القمر...

الهجوم كان صاعقًا.

اندفع بلال نحو بيت يونس.

الرقابة كانت في الخارج... لا هنا.

أُصيب فارس وعدد من جنوده في اللحظات الأولى.

تحطّم باب البيت.

دخل بلال.

هدفه واضح.

يونس.

بدوي.

وأي دليل ضده.

صرخة عالية من مها.

شدّها يونس وبدر إلى الغرفة السفلية.

البيت تحوّل إلى ساحة دمار.

بدوي سقط مصابًا .

يونس نجا من الموت أكثر من مرة بالكاد.

ثم ظهر سليمان.

اندفع نحو بلال، ضربه بقوة، جذبه خارج البيت.

خرج الاثنان.

القوات وصلت.

نيران كثيفة.

قنابل.

طائرة عسكرية ضربت محيط البيت.

دمار كامل.

انقطعت الكهرباء.

اختفى ضوء القمر.

اختفى بلال.

عاد سليمان ببطء.

التحول تراجع.

الجسد ضعيف.

الملابس ممزقة.

الدم يغطيه.

خرج يونس خلفه.

الظلام كثيف.

سمع صوت والده.

— يونس...

اقترب.

صوت متعب، لكنه واعٍ جزئيًا.

— بلال هو السبب.

— عند تحولى شممت رائحته.

— بحثت عنه رأيته يتحدث ابحاثه وقوته.

— هو يريد السيطرة بالقوة... على الجميع.

— قبل ان يقتل احد الجنود علم منه أنكم محاصرون فى المنزل

— إنه يسيطر على قوته.. هو الخطر ..

توقف لحظة.

ـــ اخترت الابتعاد.

ـــ إن كان علاجي ثمنه فوضى... فلا أريده.

صوت عواء قريب.

دفع سليمان ابنه بقوة.

ـــ ادخل... البيت .. بسرعة.

بدأت الإضاءة تعود تدريجيًا.

اختفى سليمان في الظلام خطوة خطوة.

وصل الأمن.

أحاطوا يونس.

ـــ هل أنت بخير؟

عاد معهم إلى البيت.

فارس، رغم إصاباته، نظر إليه.

ـــ رأيته؟

ـــ لا... لم ألحق.

ـــ لا أعرف من كان.

نُقل فارس إلى المستشفى.

بدوي تواصل مع المسؤولين.

الرد كان صادمًا:

فارس هو من وضع الإقامة الجبرية.

الخطة كانت نسف الجبل بالكامل.

استغل بدوي الفوضى.

هرب.

المسؤولون أرسلوا أمرًا أخيرًا:

القرار القادم... تصفية الجميع.

———

في المستشفى.

قال يونس لفارس:

— سأذهب مع مها وبدر.

— إلى الاختبار الأخير.

— إن فشل... نفّذ التصفية.

لم يعترض فارس.

سأل عن بدوي.

أجابه جندي:

— تواصل مع المسؤولين... ثم اختفى.

———

تحرّك يونس مع مها وبدر.

اتجهوا إلى معمل محمود.

وفي اللحظة نفسها...

كان معتز يصل إلى أطراف القرية.

———

الفصل الثامن:

وصلت السيارة إلى محيط المعمل قبيل الغروب.

ترجّل يونس أولًا، تبعته مها وبدر.

المكان هادئ على غير عادته، الأبواب الخارجية مفتوحة، والضوء الداخلي خافت.

قالت مها بصوت منخفض:

– هذا غير طبيعي.

دخلوا.

كانت الأرض ملطخة ببقع دم حديثة.

في الممر المؤدي إلى غرفة العناية، آثار سحب واضحة، وأجهزة مقلوبة.

نادَت بدر:

– دكتور محمود؟

لا إجابة.

تقدّم يونس بخطوات بطيئة.

وجد محمود ملقى قرب الجدار، يتنفس بصعوبة، يضغط على كتفه المصاب بقطعة قماش مشبعة بالدم.

انحنت مها فورًا:

– محمود... ماذا حدث؟

فتح محمود عينيه بصعوبة، نظر إليهم واحدًا واحدًا، ثم قال بصوت مبحوح:

– خرج... لم أستطع منعه.

قال يونس:

– معتز؟

أومأ محمود.

– التحول بدأ فجأة... كان واعيًا... قال إنه ذاهب لإنهاء الأمر.

تصلّبت ملامح يونس.

– إلى القرية؟

– نعم... كان يعرف الطريق... كان يعرف الهدف.

ساد صمت قصير.

قطعه محمود وهو يلتقط أنفاسه:

– المصل... لم يفشل.

نظرت إليه مها بقلق:

– ماذا تعني؟

قال ببطء:

– لا يوقف التحول... لكنه يكسر سيطرته الكاملة.

– يترك العقل حيًا داخل الجسد المتحوّل.

جلس يونس على الكرسي المقابل، وضع يديه على وجهه لحظة، ثم رفع رأسه.

– إذًا نحن لا نعالج... نحن نختار.

سألته بدر بصوت مرتجف:

– نختار ماذا؟

قال يونس:

– إمّا إنسان ناقص، جسد ينهار ببطء...

– أو وحش واعٍ، يعرف ما يفعل وهو يفعل.

قال محمود:

– معتز يقاوم... لكنه لن يصمد طويلًا.

– الضوء القمري يسرّع كل شيء.

قالت مها:

– وسليمان؟

نظر إليها يونس طويلًا.

– إن ظهر أبي أولًا... سأستخدم النسخة الأخيرة

التى سأبدأ بها عليه.

– وإن ظهر معتز... سأفعل الشيء نفسه.

قالت بدر بحدة:

– هذا ليس قرارًا عادلًا.

أجابها يونس بهدوء قاتل:

– لا يوجد عدل هنا.

في تلك اللحظة، رنّ هاتف محمود.

رقم غير مسجّل.

ضغط يونس على زر الإجابة.

جاءه صوت رسمي جامد:

– الدكتور يونس... معك من القيادة.

لم يتكلم.

قال الصوت:

– أمامكم مهلة محدودة.

– بعد انتهائها، تبدأ التصفية الشاملة.

– لا استثناءات.

سأل يونس:

– كم بقي من الوقت؟

– يومان.

انقطع الاتصال.

نظر يونس إلى الجميع.

– لم يعد لدينا ترف الانتظار.

قال محمود بصوت ضعيف:

– أيًّا كان قرارك...

– افعله سريعًا.

من بعيد، وصل صوت عواء خافت.

ليس قريبًا... لكنه واضح.

شدّ يونس سترته، نظر إلى المصل على الطاولة، ثم قال:

– فلنبدء سأبدء بالتجربه والبحث الاخير.

– ومن يظهر أولًا...

– هو من نبدأ به.

-

كان يونس منكبًّا على شاشة الحاسوب.

منحنيات التفاعل الخلوي تتغير أمام عينيه، ببطء، ثم بثبات مقلق.

المصل لا يوقف الانقسام غير الطبيعي، لكنه يعيد تنظيمه.

الخلايا لا تموت... تتذكّر.

قالت مها وهي تراقب القيم:

– الوعي الخلوي ما زال حاضرًا.

أجاب يونس:

– بل أقوى مما توقعت.

فتح اتصال الفيديو ببيير .

اكثر من اتصال..

ظهر بيير على الشاشة اخيراً، وجهه متعب، خلفه مكتب مزدحم بالأوراق.

قال بيير مباشرة:

– الأخبار خرجت عن السيطرة.

تصلّب يونس.

– أي أخبار؟

– تسريبات.

– جهات إعلامية بدأت تلمّح لتجارب غير أخلاقية، وتحولات بيولوجية.

– اسم معملنا ذُكر بشكل غير مباشر.

قال يونس بحدة:

– هل هناك ضغط رسمي؟

تنفّس بيير بعمق:

– ليس بعد... لكن هناك من يراقب.

– هناك من يعرف اسم بلال.

ساد صمت قصير.

قال يونس:

– أحتاج مساعدتك.

– مراجعة أخيرة للمصل قبل الليل.

أومأ بيير:

– سأبقى معك.

– لكن الوقت ليس في صالحنا.

أغلق الاتصال.

التفت يونس إلى بدر:

– اتصلي بخالتك.

– اطمئني على أمي.

أجرت بدر الاتصال، انتظرت لحظات، ثم قالت:

– بخير... لكنهم خائفون.

– الوضع في القرية غير مفهوم.

قبل أن يردّ يونس، رن هاتفه مرة أخرى.

رقم مشفّر.

جاءه صوت منخفض:

– عليك أن تعلم ماوصلت إليه الأمور.

سأل يونس:

– من المتحدث؟

– رئيس فارس بالعمل .

– بلال لم يعمل وحده.

– كان هناك دعم... تمويل... تسهيل وصول لأبحاث محظورة.

قال يونس ببرود:

– من؟

– أسماء ستعرفها لاحقًا... إن بقي وقت.

انقطع الخط.

رفع يونس رأسه ببطء.

– لم يعد الأمر محليًا.

قالت مها:

– إذًا لن يسمحوا بنجاح العلاج.

– ولن ينتظروا فشله.

———

على أطراف القرية، تحت ضوء قمر مكتمل، تحرّك جسدان بسرعة غير بشرية.

بلال كان أول من هاجم.

اندفع بلا تردد، ضربات مباشرة، قوة عمياء.

لا صوت سوى الزئير والتنفس اللاهث.

معتز تراجع خطوة.

لم يهرب.

عقله حاضر، يختار متى يضرب ومتى يتراجع.

قال بصوت متقطّع وهو يقاوم التحول:

– لن... أترك... نفسي.

ضحك بلال، ضحكة قصيرة خالية من المعنى.

هجم مجددًا.

اصطدما.

قوة مقابل وعي.

شراسة مقابل مقاومة.

تلقى معتز ضربة عنيفة في صدره.

الجرح الفضي ازداد توهجًا.

ترنّح... كاد يسقط.

من أعلى التلة، كان سليمان يراقب.

تحول جزئي.

جسد مشدود، أنفاس ثقيلة، عقل ممزق بين الذاكرة والغريزة.

قال بصوت خافت لنفسه:

– ليس الآن... ليس بعد.

ضربة أخرى من بلال.

هذه المرة أقرب للقتل.

شدّ سليمان قبضته.

رأى المشهد بوضوح.

رأى نفسه في معتز... ورأى بلال كما كان يمكن أن يكون.

قال بحسم:

– كفى.

تحول مستذئب بشكل كامل .

قفز.

اندفع نحو بلال بقوة مفاجئة.

اصطدام عنيف.

تراجع بلال خطوة، لأول مرة.

دفع سليمان معتز بقوه وكأنه يقول

- ابتعد.

لم ينتظر ردًا.

عاد لمواجهة بلال، عيناه تحملان قرارًا لا رجعة فيه.

في تلك اللحظة، كان القمر في ذروته.

والوقت... ينفد.

انقض سليمان بقوه صوت الضربات يهز القريع .

الدماء تتناثر ولا أحد منهما يسقط

القتال يستمر لساعات، لا أحد ينتصر.

الوحوش تتراجع أحيانًا، تهاجم أحيانًا، كل لحظة تهدد الحياة، كل لحظة تهدد القرى المحيطة.

لكن فجأة، يتوقف القتال قسرًا:

- اقتراب قوات ضخمة تحاصر المنطقة.
- ضوء القمر يبدأ في الانحسار تدريجيًا، يخفف من قوة التحول، ويجعل السيطرة شبه مستحيلة.

بلال ينسحب، جسده مصاب، لكنه حي.

معتز ينهار جسديًا، يتدحرج على الأرض، يكاد يفتقد القدرة على الحركة، وعيه متقطع بين الإنسان والوحش.

سليمان يختفي في الظلام قبل وصول القوات، تاركًا الساحة مشتعلة بالدمار والرهبة.

وصلت القوة المسلحة بسرعة، محاطة بدخان وخشونة المعركة السابقة.

معتز ملقى على الأرض، جسده منهك، وعيه غائب تمامًا.

فارس، رغم إصاباته الشديدة، يقف أمامه، يوجه الأوامر بحزم.

«أحكموا سلسلته من كل اتجاه»، قال بصوت منخفض لكنه صارم، رجال القوة ينهضون فورًا.

تم تقييد معتز بعناية، حذرًا من أي تحرك غير متوقع، ونُقل بسرعة إلى السجن الانفرادي، المكان الذي ستُنفذ فيه الإجراءات اللازمة.

«أبلغوا يونس فورًا بالحدث، وأحضروه للإنهاء»، أضاف فارس، ونظراته حادة كالسكاكين رغم الألم في جسده.

في هذه اللحظة، كان بلال يراقب من بعيد، عيون حمراء تتأمل الفوضى والدمار، صامتًا لكنه حاضرًا.

ثم بدأ يتحرك، خطواته ثقيلة، متجهًا نحو أسفل الجبل حيث وجد بدوى ينتظر.

لقاء حاسم، أخير، وجهًا لوجه.

بدوى، منهكًا ومثقلًا بالمسؤولية، يعرف أن هذه النهاية قد تحمل الخلاص أو المزيد من الخراب.

بلال، مستعد، غامض، كيان لا يرحم ولا ينسى، واقف أمامه.

صوت الهاتف كسر الصمت فجأة.

يونس التقطه بسرعة، وعيناه تتسعان عندما علم أن معتز مُقيد في السجن الانفرادي.

وقف للحظة، يثبت نفسه، ثم تحدث بهدوء، صوته يحمل القلق والسيطرة معًا: «فهمت... سأكون هناك».

مها، واقفة بجانبه، لاحظت شيئًا طفيفًا في نتائج المصل بعد آخر تجربة أجراها يونس.

ارتفعت فيها بعض مؤشرات النشاط الخلوي، لا بشكل كامل، لكنها لم تكن لتبدو مجرد صدفة.

همست لنفسها: «ربما هذه بداية لشيء جديد... خطوة نحو التحكم».

في الوقت نفسه، تحت أسفل الجبل، وقف بدوى وبلال مقابل بعضهما البعض، صامتين.

الريح تمر بينهما، تصفر بصوت خافت، وكأنها تحذر من أي خطوة خاطئة.

كل منهما يراقب الآخر، وكل نبضة من صمت الريح تزيد من التوتر.

انتظار ممتد، لحظة مصيرية، لا أحد يجرؤ على البدء أولًا، وكأن كل شيء معلّق على طرف خيط رفيع بين القوة والسيطرة، بين الحياة والفوضى.

-

الفصل التاسع:

وقف بدوى وبلال وجهًا لوجه، الصمت يخيّم على المكان. الريح تعصف حولهما، لكنها لم تمس وجهيهما الصامتين، كل عين تراقب الأخرى، كل نفس يتنفسه بدوى محمّل بالرهبة، لكن عزمه ثابت.

بدأ بدوى بالكلام، صوته منخفض، بطيء، لكنه مليء بالقوة:

– بلال... انهِ هذا الأمر، لم يكن الاتفاق ليصل إلى هذه الخسائر في الأرواح. نحن على اعتاب مصالحة، وتبقى قواك كما هي.

ابتسم بلال ابتسامة باردة، صوته هادئ، لكنه يقطر تهديدًا:

– لا مصل، لا علاج... أنا المخترع. لابد أن ننهى على من يبحث عن طريق غير طريقى..

رفع بدوى يده قليلًا، محاولًا السيطرة على الحوار، محاولًا التثبيت العقلي للآخر:

– أنا أملك كل شيء، كل ما يثبت إدانتك. سأقف في صف الدولة ويونس، معتز وسليمان سيعالَجون، وستظل وحدك يا بلال.

ضحك بلال ضحكة عميقة، طويلة، ارتجف معها الهواء:

– وحدي؟ أنا ؟ أنت لم تفهم بعد... لقد بدأ القمر يظهر... حان وقت اللعب الحقيقي.

ارتفع ضوء القمر تدريجيًا، تسللت أشعته عبر الغيوم، وبدأ التحول يظهر على جسد بلال. العضلات توعدت بالقوة، العيون احترقت تحت الضوء البارد، الزئير بدأ يتصاعد مع كل ثانية.

شعر بدوى أن الأمر انتهى، علم أن كل دقيقة تمر تزيد من خطورة الوضع، وأنه لا يمتلك أدوات للمواجهة أو للتقييد كما في السابق.

– لا... لا أملك شيئًا... – همس لنفسه، وهو يحاول التراجع خطوة إلى الوراء.

لكن بلال كان أسرع، تحرك نحو بدوى بلا صوت تقريبًا. قبضته امتدت، زئيره مزق الصمت، الهواء ارتجف من قوته، قوة لا يمكن التحدي. بدوى حاول الصمود، حاول الهرب، لكن كل محاولاته باءت بالفشل.

ثم، فجأة، اللحظة الحاسمة. قبض بلال على بدوى بقوة لا تقهر، زأر في وجهه، عينيه تتوهجان، ثم فصل رأس بدوى عن جسده.

وقف بلال للحظة، يتنفس بصعوبة، صوته لا يزال عميقًا وماليًا بالقوة:

– انتهى... كل شيء انتهى...

الليل عاد ليخيم في المكان، الريح حركت أوراق الأرض، والظلام ابتلع المشهد، تاركًا الصمت يملأ المكان، والصدى البعيد لصوت زئير بلال يعلو، يحذر الجميع من أن الخطر لم ينته بعد.

وقف يونس أمام النتائج التي لاحظتها مها، يحدّق في الأرقام والتركيبات بتركيز كامل، كأن العالم انحصر في تلك الشاشات والشرائح الزجاجية. لم يتكلم في البداية. اكتفى بالمراقبة، بعينين لا تهدآن، تبحثان عن خطأ صغير أو إشارة خفيّة.

يشتكى يونس من ضيق الوقت وقله الامكانيات الاعتماد كله على خبراته واستبسال مها والدكتور محمود معه فيما هو متاح رغم الصعاب..

سحب الملفات الرقمية واحدة تلو الأخرى، وأعاد ترتيبها، ثم أرسل التحليلات كاملة إلى البريد الإلكتروني لبيير. ضغط زر الإرسال ببطء، وكأن القرار أثقل من مجرد حركة يد. لم يكن ينتظر مواساة، بل حكمًا علميًا لا يقبل المجاملة.

مرّت الدقائق ثقيلة. القلق يتسلل إلى صدره مع كل ثانية. عاد يتفحّص العينات بنفسه، وأعاد قراءة النتائج الأولية، ثم توقّف فجأة. انحنى قليلًا نحو إحدى الشرائح، وعاد إلى بيانات الخلايا المتأخرة في التحلل.

همس بصوت منخفض:

– هذا... لم ننتبه له من قبل.

لاحظ نمطًا مختلفًا في تفكك بعض الخلايا، تحللًا لا يقود إلى الانهيار الكامل، بل إلى إعادة تنظيم بطيئة. لم يكن شفاءً، ولم يكن فشلًا. كان مسارًا ثالثًا.

في تلك اللحظة وصل رد بيير. فتح الرسالة بسرعة، قرأ التقييم، ثم التعليمات المختصرة والدقيقة. لم يبتسم، لكن ملامحه تبدلت. رفع رأسه قليلًا، وكأن حملاً ثقيلاً انزاح جزئيًا عن كتفيه.

قال بهدوء مشوب بالتوتر:

– المصل لا يعيد ما كان... لكنه يعيد الإنسان.

التفت إلى مها، ثم إلى محمود، صوته صار أوضح:

– في حالات مثل معتز... ومثل والدى... هذا التحلل قد يمنح المصل أفضلية. لن يعودوا كما كانوا، لكنهم لن يكونوا وحوشًا.

تقدّم خطوة نحو الطاولة، جمع النتائج، واصطفى عينات محددة من المصل بعناية شديدة، وكأن كل قطرة تحمل مصيرًا كاملًا.

– هذا هو الأمل، – قالها دون مبالغة، دون حماس زائد، فقط حقيقة علمية تقف على حافة الخطر.

نظر إلى محمود مباشرة:

– نحتاج نسخة أقوى... أسرع في التفاعل، أقل وقتًا تحت الضوء.

ثم التفت إلى مها:

– استكملي العمل. عدّلي التركيب. لا مجال للخطأ الآن.

- ساذهب بهذا لمعتز لكن قد يبطئ الامر لحين وصولكم للمرجو .. الوقت ينفذ

قالت مها برفض

- لا ابقى لنكمل فقط هذه المرحله لم يعد وقت.

ساد المعمل توتر واضح، لكن تحت ذلك التوتر وُلد بصيص أمل. ليس وعدًا بالنجاة، كان احتمالًا... واحتمال واحد كان كافيًا ليواصلوا العمل، وهم يعلمون أن الوقت لا ينتظر، وأن معتز قد يكون الفرصة الأخيرة قبل أن يُغلق كل شيء.

—

مع أول خيط للفجر، كانت القوات تتحرّك أسفل الجبل.

الضباب الخفيف يلامس الأرض، وآثار الليل ما زالت حاضرة: رائحة بارود، بقايا احتراق، وحجارة منزاحة كأن الجبل تنفّس بعنف ثم سكن. الجنود يسيرون بحذر، أسلحتهم مرفوعة، العيون متوترة، لا أحد يتحدث.

أحدهم توقّف فجأة.

أشار بيده.

اقتربوا.

كانت الجثة هناك، عند انحدار صخري ضيق. جسد ممدّد بلا رأس. الرأس على بعد خطوات، ملامح متجمّدة في فزع لم يكتمل. الدم جفّ جزئيًا، ما يعني أن الموت كان في ساعات الليل الأخيرة.

لم يحتج أحد إلى السؤال.

الزي معروف.

بدوي.

ساد صمت قصير، ثقيل، ثم تحرّك قائد المجموعة ببطء، وأخرج جهاز الاتصال.

— تم العثور على الجثة... نعم... التأكيد كامل... فصل الرأس عن الجسد.

وصل الصوت إلى مكتب فارس بعد دقائق.

كان فارس جالسًا، كتفه مضمد، وجهه شاحب، لكن عينيه ثابتتان. استمع دون مقاطعة، ثم أغلق الخط.

لم يتنفّس بعمق. فقط مدّ يده إلى الهاتف الآخر.

اتصل بيونس.

رنّ الخط مرتين.

— ألو.

صوت يونس كان متعبًا، مشدودًا.

قال فارس بهدوء لا يخلو من قسوة:

ـــ بدوي مات.

لم يأتِ ردّ فورًا.

أكمل فارس:

ـــ قُتل الليلة.من أحد الوحوش. الجثة وُجدت أسفل الجبل.

سكت لحظة، ثم أضاف:

ـــ الأمر انتهى يا يونس.

تنفّس يونس ببطء.

ـــ بلال؟

ـــ لا يهم من.

قالها فارس بحدّة.

ـــ المهم أن الصبر انتهى.

تحرّك فارس من مقعده، وقف قرب النافذة، نظر إلى السماء التي بدأت تضيء.

ـــ تم تفجير نصف الجبل قبل الفجر. خسائر كبيرة. لم نعد نطارد... نحن نمسح.

صوت يونس خرج منخفضًا:

ـــ ماذا سيحدث؟

التفت فارس.

ـــ هنا فرصتك الأخيرة.

صمت قصير، ثم:

ـــ لديّ أوامر مكتوبة بتصفيته قبل منتصف الليل. إعدام مباشر. لمنع التحول.»

ارتفع نفس يونس.

ـــ وأبى ؟ومعتز؟

ـــ «الأمر صدر.»

قال فارس ببرود واضح.

ـــ تصفية كاملة.

توقّف لحظة، ثم خفّض صوته:

ـــ لكن... أعطيتك مهلة واحدة. ليست لك. له.

ـــ كم؟

سأل يونس.

ـــ حتى منتصف الليل.

أجاب فارس.

ـــ إمّا تنقذ معتز. أو ننهي كل شيء.

سكت فارس، ثم قال أخيرًا:

ـــ بعد ذلك... لن أستطيع إيقاف شيء.»

أغلق الخط.

بقي الهاتف في يد يونس، دون حركة.

شمس النهار خرجت..

والوقت بدأ يعدّ بالعكس.

-

وقف يونس وحده في منتصف المعمل.

الأجهزة تعمل، الشاشات تومض، الأرقام تتحرّك، لكن شيئًا واحدًا كان ثابتًا داخله.

الفهم.

لم يأتِ فجأة، بل تراكَم، قطعة بعد أخرى، حتى صار واضحًا بلا حاجة لشرح.

بلال لن يتوقف.

بلال كان دائما وحشًا ، عالمًا ضلّ طريقه. كان قناعةً كاملة بأن العالم يجب أن يُكسر ليُعاد تشكيله. لا ندم، لا تراجع، ولا نهاية يختارها غير التي يرسمها بيده. أي حل لا يبدأ من سيطرته... عدوّ يجب محوه.

ولا أحد يملك الصورة كاملة.

بدوي مات وهو يظن أنه يعرف. فارس يتحرّك بالأوامر. القيادة ترى أرقامًا وخسائر. محمود يرى خلايا. مها ترى احتمالات. بدر ترى الخوف.

وحده يونس رأى البداية، وقرأ البحث، وفهم المصل، وشاهد التحول، ولمس الفرق بين الوحش الذي فقد ذاته... والوحش الذي ما زال يتألّم لأنه يتذكّر.

رفع يونس عينيه عن النتائج.

هذا ليس بحثًا.

ولا هذه تجربة.

هذا قرار مصيرى .

السؤال صار: من يملك الحق في الاختيار الآن.؟

شعر بثقل القرار يهبط عليه ببطء، كصاعقة، كحملٍ يعرف أنه إن لم يحمله الآن، فلن يحمله أحد.

إن فشل... سيموت معتز.

وإن نجح... قد يولد شيء لن تستطيع الدولة السيطرة عليه.

وإن تراجع... ستُباد القرية، ويُمحى كل أثر للحقيقة.

مدّ يده إلى حقنة المصل الأخيرة.

يده تكاد ترتجف.

في تلك اللحظة، لم يعد يونس باحثًا ينتظر النتائج.

صار صاحب القرار.

والخطأ هنا... ليس مسموحًا.

-

في وقت عمله المكثف، كان يونس يراجع النتائج، تتنقل أمامه الشاشات، الأرقام تتغير بسرعة، والبيانات تتكدس، بينما كان هاتفه يهتز، مكالمه فيديو مع بيير.

—بيير: يونس، أرسلت لي آخر تحليلاتك. النتائج الأولية تظهر فعالية محدودة، لكن هناك بوادر لتثبيت الوعي في حالة التحول.

رفع يونس عينيه، نظر لمها ولمحمود في المعمل، ثم أجاب مباشرة:

—يونس: أرسلت لك كل العينات الأخيرة، وكل التجارب التي أجريناها حتى الآن. أريد تقييمك الكامل قبل أي خطوة.

توالت الاتصالات، كل تجربة تمت مراجعتها، كل بيانات فُحصت بسرعة أمامهما، أرقام، خلايا، قياسات، حركة الجزيئات. دقائق مرت كساعات.

—بيير: يونس، هذه النتائج إيجابية، لكن لا تجرب المصل إلا على شخص واحد. لا أكثر. احرص على كل الإجراءات الاحترازية.

نظر يونس إلى المصل الأمبول الأخير، يدوِيه ثابتة، صوته منخفض:

—يونس: أمامنا خيار واحد، شخص واحد فقط. الوضع لا يسمح بالنقاش. لا مجال للتردد.

أمسك الأمبول، وأعاد النظر إلى المصل، كل شيء واضح، كل خيار ثقيل، كل لحظة محسوبة.

أمامه الاحتمالات:

—يونس: معتز... مقيد بين الحياة والتحول.

أو سليمان... حر، خطر، الأب.

لا إعلان، لا نقاش، مجرد قرار.

رفع عينيه، نظر لمها ولمحمود، صوته هادئ وثابت رغم الضغط:

ـــيونس: لن تكون هناك حقن عشوائية. لن تكون هناك تجربة. لن يكون هناك نتيجة مضمونة. الحركة واحدة فقط... تجهيز المصل، أو تجهيز النقل، أو التحرك خارج المعمل.

الساعة تتقدم، الضوء في المعمل ثابت، الرعب يختلط بالهدوء، والشعور بضيق الوقت يضغط على الجميع.

وقف يونس، الأمبول بين يديه، قلبه مركز، كل شيء أصبح على المحك.

ـــيونس: هذه ليست محاولة علاج... هذه المرة اختيار.

الانبول يُغلق، والصمت يعم المعمل، والثقة بالقرار على كفة، والخطر يلوح على الكفة الأخرى.

-

قضى يونس اليوم كاملاً بلا نوم، محنيًا على المصل، يراقب كل تفاصيله، ويتأكد من جاهزيته. محمود ألقى نفسه على السرير، مستسلمًا للإرهاق وإصابته .

بينما مها وبدر غلبهما النعاس في إحدى الغرف. نام الجميع، ومع ذلك ظلّت أعين يونس ساهرة، تُحضّر العدة، تُراجع الخطط، وتراقب الوقت بدقة.

استيقظت مها وبدر متأخرتين، واضح عليهما التعب والإرهاق، ومع ذلك كانت عزيمتهما حاضرة، متطلعتان لما هو قادم. اقترب منهما محمود بهدوء، يقول:

ـــ أتمنى لكم النجاح، وابقوا على ثقة أنني بانتظار أخباركم.

تحرك الجميع وهم يعلمون أن القوّة الأمنية مشددة، كل مكان داخل تحت المراقبة، دوريات تحيط بكل الطرق، وأوامر صارمة بعدم الخروج من المنازل، استعداد كامل ليوم بلا هدوء، يوم للترقب، يوم للمعركة النهائية.

حزم يونس معداته، شدّ حزامه فى السيارة،

ينظر إلى الغروب حيث تختفي الشمس تدريجيًا وراء التلال. قال بصوت هادئ لنفسه:

ـــ الليلة ستبدأ المعركة، وما بعدها لن يكون هناك مجال للخطأ.

تقدّم يونس نحو القرية ، حيث القوة والمواجهة والليل، وبدأ الظلام يكسو الأرض، حاملاً بين يديه أملًا ضئيلًا، لكنه حاضر، يقينًا بأن هذه المرة كل شيء يعتمد على خطوة واحدة، قرار واحد، وإرادة واحدة.

ـــــ

الفصل الأخير

دخلت السيارة أطراف القرية مع انحدار الشمس خلف الجبل.

الطريق خالٍ تمامًا.

الأبواب مغلقة.

النوافذ معتمة.

لا أصوات، ولا حركة، سوى دوريات أمنية تمر بانتظام شديد، وجنود يقفون عند المفترقات، وأوامر صارمة بمنع الخروج مع حلول الليل.

الجبل بدا مشوَّهًا.

جزء كبير منه منهار، صخور متناثرة، آثار تفجير حديث، ورائحة احتراق لا تزال عالقة في الهواء.

رن الهاتف داخل السيارة.

فارس

ـــ وصلت؟

يونس

ـــ دخلت القرية الآن.

فارس

ـــ شخص واحد فقط معك. هذا قرار نهائي.

يونس

ـــ موافق.

أنهى الاتصال، ثم التفت إلى بدر.

يونس

ـــ ستبقين مع أمي.

ـــ لا تخبريها أي شيء عن والدنا سوى أنه مصاب وتحت رعاية طبية.

ـــ أي سؤال آخر، تجاهليه.

بدر

ـــ وأنت؟

يونس

ـــ سأعود. ثقي بذلك.

توقفت السيارة أمام منزل الخالة.

دخلت بدر مسرعة، وصعد يونس معها إلى الداخل.

نظر إلى والدته، التي كانت جالسة بصمت.

يونس

ـــ أنا بخير.

ـــ سليمان مصاب ويتلقى علاجًا.

ـــ الأمور تحت السيطرة.

تأملت وجهه طويلًا، ثم قالت بصوت منخفض:

الأم

ـــ احفظك الله يا بني.

خرج دون أن يضيف شيئًا، وعاد إلى السيارة حيث كانت مها تنتظره.

———

كان مكان الاحتجاز محاطًا بسياج معدني مرتفع، وكشافات قوية تضيء كل زاوية، وجنود منتشرين بأسلحتهم.

فُتح الطريق، ودخل يونس.

وقف فارس عند المدخل.

وجهه شاحب، وآثار إصاباته واضحة.

فارس

ـــ القرار صدر.

ـــ تصفية كاملة قبل منتصف الليل.

ـــ لا علاج، ولا انتظار.

يونس

ـــ هذه التجربة آخر أمل.

ـــ إن فشلت، نفّذوا القرار.

فارس

ـــ أمامك دقائق فقط.

فتح الباب الحديدي، ودخل يونس ومعه مها.

كان معتز مقيّدًا بسلاسل من كل اتجاه، رأسه منخفض، تنفّسه غير منتظم.

أخرج يونس الأمبول ببطء.

مها

ـــ القراءات العصبية غير مستقرة.

ـــ هناك استجابة ضعيفة.

يونس

ـــ هذا يكفي.

حقنه بحذر، ثم تراجع خطوة.

ساد صمت مخيف.

مرت ثوانٍ طويلة.

تابعت مها الحاله عن قرب ثم قالت:

ـــ تشنجات خفيفة.

ـــ حركة في العين.

ارتجفت أصابع معتز، وارتفع صدره بزفير عميق.

فتح عينه نصف فتحة.

يونس

ـــ لم ينتهِ بعد.

ـــــــ

في الجبل، اكتمل القمر.

ظهر بلال خلف سليمان.

التحول بدأ سريعًا وعنيفًا.

استدار سليمان متأخرًا، وتلقى الضربة الأولى فسقط أرضًا.

نهض، وقاوم.

بلال كان أقوى، رغم إصابة قدمه.

الهجوم متواصل، بلا تردد.

التحما، سقطا، نهضا من جديد.

قبض سليمان على عنق بلال، وكاد ينهيه.

وصلت الكتيبة.

أسلحة ثقيلة.

نيران كثيفة.

انفجارات متتالية.

أُصيب الاثنان، لكن سليمان تلقّى الضربات الأقسى.

اشتعلت الأرض من حولهما.

أُحرقت المساحات الزراعية.

تراجع بلال، ثم هرب.

سليمان سقط أرضًا، وبقي بلا حركة.

———

اتجه بلال نحو القرية.

الرائحة قادته مباشرة.

مكان الاحتجاز.

هجوم مباشر.

تحطم السياج المعدني.

صرخ الجنود.

فارس

— إطلاق نار!

يونس

— لا تطلقوا النار!

رفع معتز رأسه فجأة.

التحول بدأ رغم المصل.

شدّت السلاسل، ثم انكسرت دفعة واحدة.

اندفع بلال نحوه، واصطدما بعنف.

كان جرح معتز الفضي واضحًا في صدره، وبلال في هيئته المتوحشة الكاملة.

الصراع كان عنيفًا وسريعًا.

سيطر بلال في البداية، ودفع معتز بقوة، وأسقطه أرضًا.

نهض معتز ببطء، نظر إلى قدم بلال المصابة، ثم هاجمها بمخالبه، مرة بعد أخرى.

سقط بلال وهو يزأر.

حمله معتز، واتجه به نحو السور المعدني، ثم أسقطه عليه بقوة.

اخترق الحديد صدر بلال.

هجوم أخير.

مخالب في الرأس.

رفع الجسد، وألقاه في النار المشتعلة.

وقف معتز، وعوى طويلًا.

ثم انكسر العواء.

معتز

ـــ آه!

سقط على ركبتيه.

تراجع التحول، وعاد الجسد إلى حالته البشرية.

نظر إلى يونس.

معتز

ـــ هزمته.

ـــ المصل منحني القدرة.

سقط أرضًا منهكًا.

عاد الصمت.

النار ما زالت مشتعلة.

القمر بدأ يختفي.

انتهى بلال محترقا امامهم لا اثر واضح ..

سوا جثه كامله محترقه..

سقط معتز أرضًا واعيًا، لكن بلا أي قدرة على الحركة.

كان يتنفس بعمق، والجروح التي ملأت جسده قبل دقائق اختفت، وكأن شيئًا لم يكن.

انحنى يونس نحوه، واحتضنه بقوة.

يونس

ـــ عبرنا المعركة الأقوى.

ارتجف صوته، وامتلأت عيناه بالدموع.

يونس

ـــ تبقى أبي.

وضعت مها يدها على كتفه.

مها

ـــ سنفعلها ثانية.

ـــ لن نتركه.

حمل الجنود معتز بحذر، ونقلوه بعيدًا.

تحرك يونس ومها خلفهم، ومعهما فارس.

توقف يونس للحظة.

يونس

ـــ شكرًا لك على هذه الفرصة.

هز فارس رأسه دون كلام.

وصلت كتيبة أخرى مسرعة، وأبلغت فارس بما حدث عند الجبل.

لقاء الوحشين.

سقوط أحدهما.

والقبض على آخر مصاب، مقيد بالسلاسل، عاد إلى هيئة إنسان، لكنه مشوه الجسد.

صرخ يونس فور سماعه الخبر.

يونس

ـــ هذا أبي!

نُقل سليمان إلى المستشفى مقيدًا.

طلب يونس علاجه فورًا، ولم يجب فارس.

تقدمت مها.

وقالت:

ـــ إن مات الآن، فلن يبقى معنى لكل ما حدث.

وصلت القيادات العليا بحراسة مشددة.

اطلعوا على التفاصيل كاملة.

ودخلوا المستشفى .

نظر القائد إلى سليمان وسأل:

القائد

ـــ من هذا؟

صمت الجميع .

تدخل فارس فورًا.

فارس

ـــ هذا يا سيدي أحد الضحايا.

ـــ تم إنقاذه من الوحش في اللحظة الأخيرة.

ـــ وهو والد الدكتور يونس، صاحب المصل الذي أعاد معتز إلى الحياة وأنقذه من العدوى والتحول.

نظر القائد إلى الوجوه من حوله.

ثم قال بهدوء حاسم:

القائد

ـــ أشكركم جميعًا.

ـــ سيتم التكتم الكامل على ما جرى.

ـــ الأمن سيعود إلى القرية فورًا.

ـــ وسنكرّم من أنقذوا الناس في هذه الأيام السوداء.

أخبرته مها عن الدكتور محمود، فرحب بذلك، ثم غادر.

اقترب يونس من فارس.

يونس :

ـــ أشكرك كثيرا لما فعلت من اجل ابى ..

ـــ لو عُرف أنه متحول، لكان أُعدم فورًا.

أجابه فارس بصوت منخفض.

فارس:

ـــ لذلك أخفيت الأمر.

ـــ أمامكم فرصة واحدة لصناعة جرعة أخرى.

بعد أيام، عمل يونس ومحمود ومها دون توقف.

صنعوا جرعة جديدة، أسرع وأكثر تركيزًا.

حُقن بها سليمان.

بدأت علامات التحسن تظهر.

فتح عينيه.

تحدث.

جلس يونس إلى جواره، ومعه معتز.

يونس:

ـــ لقد هزم معتز الوحش بداخله.

ـــ المصل ساعده.

ـــ وأنت تستطيع ذلك أيضًا.

قال له معتز

ـــ كنتَ دائمًا قدوتنا يا مهندس سليمان.

بعد أيام، أقيم تكريم رسمي.

حصل يونس على وسام من الوزارة.

تم الاتفاق على الرواية الرسمية، ووافق يونس.

غادر مع مها ومحمود.

اتصل بيير مهنئًا.

أخبره يونس أنه سيطمئن على والده، ثم يتزوج، ثم يعود للعمل.

فهم من حديث بيير أن السباق العلمي بدأ، وأن جهات أخرى تريد استثمار ما حدث.

تحسنت حالة سليمان.

عُقد قران يونس ومها.

طلب يونس من والده السفر معهم.

رفض الأب.

قال سليمان:

ـــ سأصلح بيت العائلة بعد ماحدث له.

ـــ سأبقى انا وأمك هنا حيث كنا دائماً

ـــ وأختك تريد ان تكمل عملها هنا .

ـــ ابقَ حيث تجد مستقبلك.

ـــ وعد... ستعود.

سافر يونس ومها إلى أمريكا.

أُغلق معمل محمود بدون علم لسبب وحصل على تعويضات ، وانتقل إلى القاهرة لبدء العمل من جديد.

تقدم معتز لخطبة بدر، ووافق الأب.

وفي اتصال فيديو أخير، أخبر يونس الجميع أنه أنهى عمله مع بيير، وسينتقل إلى مركز آخر.

وقال:

يونس

ـــ سأعود.

ـــ سأبدأ من حيث بدأ أبي.

صدر البيان الرسمي:

عمل إرهابي تم القضاء عليه.

عادت الطمأنينة.

الأمن مستقر.

وفي إحدى الليالي، أغلق سليمان باب منزله.

ساد الصمت.

ثم خرج عواء بعيد من جهة الجبل.

ضحك سليمان، ونظر إلى زوجته، وقال:

سليمان

ـــ الوحش لا يُهزم حين نقتله...

بل حين نمنعه أن يقرر من نكون.